ليلى محمد صالح

عطر الليل الباقي



قصص قصيرة

عطر الليل الباقي

قصص قصيرة

Author : Laila M . Saleh
Title:The Remaining
Night Perfume

First Edition 2000

اسم المؤلف : ليلى محمد صالح
عنوان الكتاب : عطر الليل الباقي
قصص قصيرة
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٠

يطلب من دار المدى

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E-mail:al-madahouse @ net.sy :البريد الإلكتروني

ليلى محمد صالح

عطر الليل الباقي

قصص قصيرة

إهداء

إلى لؤلؤة متألقة

اسمـهـا الكـــويت

ماضياً... وحاضراً

سقوط القمر

في الساعة الأولى بعد منتصف الليل... كنت أستمع إلى موسيقى وردية لشوبان... في غرفتي الوارقة البياض... المليئة بالحنين الغافي على قميصي المطرز بجوري الذكريات .

قمت للمرآة لأبحث عن وجهي الخاص... وجدت مرآتي مكسورة... أطفأت النور... وأشعلت الشمعة... انكسرت الشمعة أطفأت الشمعة... وسحبت خيط الستارة المشبوك بطرفي النافذة فانفرجت الستارة المسدلة عن دانتيل يتمايل على إيقاع الهواء المضغوط... فبدا أمامي وكأنه راقصات باليه في حفل .



من نافذتي يدخل القمر البهي كومضة البرق مقتحماً باب الليل... يتمدد مرهقاً على سريري المرشوش بماء الورد... والمسور بالأحلام البنفسجية... يملأ المكان بهاءً نادراً من سحر الأريج... وتيه الكلام... بيده يضيء مصابيح الظلام... فيندمج لونه القزحي البديع مع لون غرفتي فيحيلها إلى لوحة فنية لا تقدر على خلط ألوانها إلا ريشة فنان تشكيلي مبدع .

ـ سلاماً... يمد يده المخضبة بدهن القرشي* للعود...

* اسم تاجر اشتهر ببيع الطيب الجيد .

أبسط يدي المرتعشة... مستقبلة هذا الاختراق العذب في هدوء الوحدة... بينما شفتي تذرف خوفاً أسئلة لا تحصى على مقبض الباب والزوايا والأدراج... ما هذا الحضور المفاجىء ؟ كيف أتيت ؟

- ألتجىء إليك في حالات اكتئابي...

يحاول أن يكسر عزلتي... يقترب... يبوح بكل الشؤون والشجون... لكنني أكرر السؤال عليه...

- هل أنا أحلم ؟ كيف أتيت ؟

- فارسٌ أعزل إلاّ من ابتسامة مضاءة للنبأ المضاء......

أهدابي تتعلق بوجهه المألوف إلى قلبي... لأعرف علامات البداية... علامات النهاية...

يبتسم لي وهو يدرك قصدي :

- ماذا تعرفين عن البدايات والنهايات .

مواصلة الطريق أو الفراق .

- هل من الممكن أن نفترق حاملين طعم الرغبة المخنوقة موتاً .

- الرغبة تتوقف في أول الومض ، والأصعب أن نقول نعم أو نقول لا... لأن المرأة لا تطلب مباشرة ما تريد... ولا تستطيع أن تدافع عن معتقداتها أمام الضغوط الاجتماعية .

- لا أريد أن أضيع عمري... أريد أن أعيش كما يعيش غيري... لك مني صدق خفقة البدايات... وخفقة أجنحة الرغبة النقية الصادقة أضحك ويضحك معي... ذراعه تحتك بذراعي... أبتعد... يقترب موضحاً .

- الخبير النفسي يقول : إن المخطوبين عموماً الغرباء والأقرباء... يمرون بفترات مَد وجزر كمياه البحر... فترات تعلق ووجد... وفترات غضب وزعل... كتعاقب الليل والنهار... وأنا وأنت لدينا الرغبة القوية... وما كان علينا أن

تقاومها... قولي آخر نعم... وغداً نعلن النبأ بقصر العدل .

يشهق قلبي... ترتفع دقاته في سباق عنيف... يفوح الجوري مشعاً... يتوقف الزمان... تنحسر الأنفاس... تمر لحظات لا أعرف حجمها حتى توقظني اليقظة .

أتنهد بعمق... تسيل دمعة حب دافئة على خدي لليقين القادم... ببرود يسحب اللحاف المطرز إلى أعلى... يحكمه حول جسمه... يسرح بعيداً... وأبقى أنا مفتوحة العينين قرب النافذة... مرتعشة... باردة... خفيفة... وكأن نسيماً عليلاً يلفحني ويرفعني الى حلم التوهج .



أهلاً بك قمري في غرفتي المتواضعة المطلة على الجادة الثانية عشرة في القطعة السابعة... لا بد أنك اكتشفت وأنت في الزاوية الباردة... أن عيشتي البسيطة هذه تفتقر للواقعية... ولو كانت الواقعية نهجي قبل أن أهدر أجمل سنوات أيامي... لما استقبلتك الآن بغرفتي الضيقة... أضيق من وجعي ومن تجدد أحلامي... إنها مسكونة بعشق الصمت... ومفروشة بسجادة الكتب القديمة... وبسرير منجد بالسؤال القديم .



سيدي وسيد الليل... يا مظلمُ كنفسي الحزينة... ومعتمُ كالأماني المستحيلة... لو لم أكن رومانسية مثلك أيها النقي المرسوم في عمق المدى... لما انعكست مرآة روحي في مراياك الملونة... ولما احتميت بك كحمامة مستسلمة... ولما استعطت أن أتجاوز معاناة الخوف والقلق والنشوة لأسمعك مع خيوط الفجر الأولى... وفي هذه الساعة التي تقترب من الثانية بعد منتصف ليل

أغسطس... وأنا أبحر مع الليل ليلاً... ومع الصمت صمتاً...

اسهار بعد اسهار... تيحرز المشوار... كتار هون زوار... شويْ وبيفلوا... وعنا الحلا كلو... وعنا القمر بالدار... ورد وحكي وأشعار... بس اسهار... اسهار .

هذه الأغنية تجعلني بعفوية الطفولة البيضاء أتسلل عبر الغسق الراعش إلى جزر جميلة حالمة خالية من الجدران والبروج... أعذرني إن لم أسمعك في هذه اللحظات التي أوشكت أن تسبق الغفوة... غير صوت فيروز الذي يقطر أضواءً فضية مبللة بالندى... إنها لحظات يتجلى العالم فيها ويصفو... يصبح رائقاً مثل المطر الناعم المتساقط فوق البحر .



قمري... قبل أن يداهمك نوم البوح في ليل الشجن... وتحلم دون نوم... دعني أحلم معك بأمل حاضر جديد كي لا نموت في حنجرة المستقبل... دعني أتساءل عن أخطاء نجدها أينما نتلفت... لا تستطيع كل المساحيق التي تبتكر يومياً أن تحجبها... لأن الجزء الرديء يبقى ماثلاً أمام أعيننا بكل أشكاله البشعة وعلى الإنسان أن يغيره...

إن الواقع بعلاقاته وقوانينه يفرز أشكالاً متعددة... من الإحباط... الاستلاب... القهر... والإنسان يواجه... يعمل... يحلم... يقاوم... ينسى... والنسيان من نعم الله الفياضة .

آه أنا مريضة بالنسيان... أنا صحيحة بالنسيان... لكن قمري... لماذا كل من يحيط بنا يعيب علينا كثرة النسيان... وأننا لا نفتح عيوننا لنرى ازدحام الشوارع... هل لأن الرومانسية في عصر الحرب والقلق والإرهاب قد نسيها البعض رغم عذوبتها وعذابها... هل لأنها سرحان... ودوخة... وازدراء للواقع

والواقعية ؟

❖ ❖ ❖

عذراً سيدي القمر... تبقى أنت سيد الأحلام والأيام... أستأذنك... بالخارج ضجيج... وأصوات غريبة تدوي... الآن . لا أتمكن من الكلام عن حب الزمن الآتي... وتثاؤب الأشواق... وخلجات قلبي الضعيف الهش... ووجع وسادتي الحزينة في ليل الشجن... لا... لا أسمع ؛ وأنت تردد عليَّ أبياتاً من شعر المتنبي... وفهد العسكر... وقصيدة السياب أنشودة المطر .

الأصوات الكبيرة فاجأتني في فوضى الدهشة... الزجاج يتهشم... الأصوات تشتد... تعلو... تعلو كالفرقعات .

اعذرني قمري... لا أستطيع أن أقطف أقحوانة كي أضعها على صدرك الشامخ... ولا أتمكن من إيقاد الفوانيس القديمة الخضراء في الزوايا الهادئة المعتمة التي تريدها... لا أستطيع أن أحدثك عن تلوين كلمات السواد والليل بألوان قوس قزح الزاهية... ولا عن أفراح الأيام الطويلة المجرحة... لا أستطيع أن أصغي إليك وأنت تشرح لي كيف عارضت زميلاً لَكَ مهنته السياسة ولا يناصر حقوق المرأة السياسية .

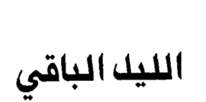
عذراً... القصف شديد... الرصاص يدوي... البحر ينصت غاضباً أمام الأمواج المتلاطمة والرمل... النجوم اللامعة تنهمر... والليل يمتص الضياء من أجفاني وأجفانك أيها القمر النبيل... في هذه اللحظات السريعة السوداء... التي تشابكت أحلامنا فيها أمام الضوء المتكسر... وأمام الطابور الكبير المدجج .

بسرعة قفزت... لكن قبل أن أهرع للشارع... نظرت لوجهي الخاص في المرآة... ما زالت المرآة مكسورة... والشمعة مكسورة...

فتحت باب بيتي... وجدت العالم بالخارج يحتضر... أصابع تضغط على

الزناد في مأساة... طلقات من الرصاص... صنبور من الدماء... بذعر فزعت... ركضت... بتعب سقطت... انهمرت دموعي الغزيرة على حماقات الحكمة الذبيحة... نزفت على لوحة الوطن... وسقط قمري الذي أدماه المشهد...




الليل الباقي

جفاف البرد يجمدها ويلفها... تقرب المدفأة... تلتف بالشال الملون... لا حضن يدرأ عنها البرد... تركها نجمة معلقة على ظمأ الحلم... أحياناً تغرق نفسها في دوامة العمل المزدحم... وأخرى تقلب أشجان الأيام صفحة صفحة... تناولت الصفحة... تتسمر عيناها فوق ذلك المربع بين الصفحات البيضاء... الورق بين أصابعها ثقيل ثقيل... ترتجف دموعها خلف الأجفان... تصرخ... تريد أن تفعل أي شيء كي لا تصدق تلك الكلمات القليلة التي تمس حبها الوحيد الذي تملك وحدها حرية التفكير به... وتحرص دوماً على أن يبقى خالداً نابضاً في حياتها مهما بعد... لأن التفكير به كان بالنسبة لها كل حياتها... بل هو كان نوعاً من الهروب... هروبها من الذات إلى تلك اللحظة التي يطمح فيها الإنسان للانفلات من الزمان والمكان .

تركت البيت يغرق في سكون غريب... كل شيء كما هو... لَفت ملفعها حول رأسها... أحكمت وضع العباءة وانطلقت بسيارتها إلى (منطقة بيان)*... الدمع ينهمر فوق وجنتيها... وأنين جراح ينزف دماً في الأعماق... بحثت عن الورقة المخبوءة في صدرها... العنوان محفوظ بها... عادت تدور وراء الخطوط والبيوت والشوارع... وجدت بين السيارات الفارهة موقفاً لسيارتها .

دخلت البيت تتعثر في مشيتها كأن بها دواراً... الأرض ترتجف تحت

* بيان : اسم منطقة كويتية .

قدميها... الحزن ينهشها... أطرافها ترتعش... كل شيء حزين... الحزن ينتشر في كل مكان... تركت نفسها لمشيئة الزحام يضعها على أي كرسي من الكراسي المصفوفة بإتقان في الصالة بعد أن عزّت الجالسات وتمتمت أي كلام دون أن تنظر إلى أية واحدة منهن... أحنت رأسها محدقة بيديها المضمومتين وهي تداري رجفة يدها... معظم الجالسات لا يعرفنها... المعزّيات لا يعرفنها... فقدت الإحساس بكل شيء... لا تعرف كيف تتصرف في مثل هذه المناسبات... غاب العالم المنمحي أمامها... خمد الضجيج وصمت... الدم يصعد ثقيلاً إلى رأسها ويحتقن في عينيها... تبلع دموعها التي تجمدت في حلقها وتبحث عن نفسها بينهن .

بطرف عينيها تلحظ أن المرأة النائمة على الجانب في أقصى اليسار والتي تتألم ببكاء خافت يتسرب إلى الصالة هي أمه... كل شيء في الصالة يسيل موتاً... صمت أزلي كالموت يطوف بين أسراب الماضي... أكوام من الخيال المرتمي في صقيع القلب... آه يرعبها أن تلحظ ارتجافها تلك المرأة التي تجلس على مقربة منها... إنها خالته التي راهنت على إبعادها عنه كي تعطيه ابنتها... حين كانت هي في السادسة عشرة... قلباً متدفقاً... يعرف للدنيا لحن الحب والشباب/



سنوات ضاعت من عمرها هباء... يا لضيعة العمر... جرح قديم فتح الآن بصدرها من جديد... فَجّرَ فيها المشاعر والذكريات... الذكريات هي الشيء الوحيد الذي لم يستطع أحد أن يحرمها منه . شعرت بانتفاضة في صدرها وبخدر دافىء ينساب في قدميها... بدأت الأشياء تتلون أمامها حين تذكرت بقايا فرح قديم... يوم زفت إليه وسط ـ فرقة عودة المهنا* ـ بين الزغاريد

المرشوشة بماء الورد والطيب... وبين الطبول والطيران المضرجة بفرح أغنية .

هب السعد هبايب الأرياح
يا شاري العقال والصلاح
طيبة يا عل السعد فالج
سلم أبوچ وعزوتچ وريالچ**

كان هو فارساً جذلاً فرحاً بها... لكن أهله كانوا يلتفون ناحيتها يلوثون الفرح ويرسمون لها شكل الحياة القادمة .

تتهامس واحدة بصوت يصلها :

ـ كان الأجدر أن يزف لابنة خالته فهي من أصله وفصله .

ترد الأخرى :

ـ حلاة الثوب رقعته منه وفيه*** .

لم تمضِ شهور على زواجها ، أبعدوه عنها وتم زفافه لمن أرادوا .

في ذلك اليوم المشهود قال لها بشجن : أنا لَكِ... مضت الأيام بها... أيام تموت وأخرى تبدأ... وحكايات ملأى بأساطير الحنين... إخلاص وحب وحزن وليل وظلام ونافذة عمياء... ليلها منذ سنين صار سهماً يغوص في قرار قلبها... تنير فيه شموع الشوق واللهفة والذكريات... وتبكي طويلاً... تجتر حباً راح .

كانت تتمنى لو تستطيع أن تبكي على صدره وتقول له... لم أعمل أي خطأ... لِمَ تركتني للريح تطاردني وتبعثر أوراقي... لِمَ تدعني أتألم لفراقك مع

---

* من الفرق الشعبية الكويتية المعروفة .

* * أغنية للأفراح الكويتية .

* * * مثل محلي .

أكوام الخيال المر... ماذا جنيت حتى أستحق هذا ؟

تقدم لها الكثير طالبين يديها... لكنها كانت أبداً ترفض وترفض... أمها تتألم لجفاف خضرة شباب ابنتها... تحدث نفسها وهي تبتسم :

ـ حسبي الله ونعم الوكيل لقد عملوا لأبنتي ما حال بينها وبين الزواج .

ذهبت بها لمشايخ الدين... قرأوا عليها القرآن... بخروها... لكن لا فائدة كان دخان البخور أمام عينيها البراقتين تتخيله حلماً ينقلها إلى حلمها الوحيد الذي زرعته على صدرها للأبد قلادة حب حول الجيد... كانت دائماً تحدث نفسها وبارقة أمل تتراقص أمام عينيها رغم علمها بأن مواقفها هذه ستكون شرخاً في مرآة حياتها بعد أن أصبح لزوجها أولاد تفتحوا كالزهور... كم تمنت له سعادة الهدوء... رغم بقائه في قلبها وعينيها كرعشة حقيقية يذْكُرها تاريخ الشهور والسنين وحلم الماضي الدفين .

تلامس القطرة الملتهبة شفتيها فتتذوق طعم الحب الوحيد والحنين... تحن إليه كما تحن الأرض للمطر... تلقي رأسها المثقل بتداعيات الزمن المهزوم... تجول بنظراتها بين الكراسي... تجد الحزن يتجول في كل الزوايا... هناك كان يجلس... مكانه الخالي كيف تحييه... تشم رائحته وهي تتدثر بأكفان الألم وفجيعة الفقد الأخير... صامتة كالموت... لا تدري لِمَ أتت إلى هنا... لا أحد يعرفها... لقد تغيرت ملامحها... هو وحده كان يعرفها... لكنه الآن ليس هنا .

الجالسات في مجلس العزاء يسترقن النظر نحوها... الموت هنا يبدو غريباً... الصمت مطبق وقاتل... للحركة طقوس... أدركت ان ليس من حقها ان تظهر حزنها... أو ان يبدو منها شيء مما يعتمل في داخلها... حملت الأحزان وأحلام الغياب والانتظار بجفنيها... آه لو أموت معه ثم يعاد خلقنا... سيكون الحب جديداً وجميلا لنا وحدنا... لكن الموت قدر... في اللحظة التي يموت فيها إنسان يولد إنسان آخر

بهدوء شديد نزلت من مرتفعات الأحلام إلى منخفضات الواقع... مشاعر في صدرها الملتهب ذكريات قديمة تأتي وتروح... ولكنها لا تنتهي... أخذت تهذي بصمت... تعاتب نفسها على الماضي الذي اهدر كل ساعات يومها وجعله يشبه كل ايامها المظلمة... حينها ادركت ان اهمية الظلام لا تعادلها اهمية الإضاءة المشرقة... قريباته يسمعنها وهن ينسبن إليه أفعالاً وصفات تحيله إلى شخص غريب عنها... أحست بغضب وحزن وقوة... غضب لأنه رحل واخلف وعده لها... وقوة تصهرها كما تصهر النار صفائح الفولاذ وتحولها إلى أشكال أخرى .

بحزن تبكي نفسها في أسى جريح... تبكي السنين التي مضت على الفراق والضياع الذي دمرها... والنار التي تنتحب في اعماقها... كيف اضاعت وجودها تحت تراب الحنين ودماء القلب .

لقد أمضت أياماً وهي تنزوي تتلذذ بأحزانها... تبكي... وما أكثر ما بكت...! تذكرت حين خرجت من حياته مهزومة وجريحة دون أن تجد وهي في ذروة الحزن من يعزّيها... لقد كانت فجيعتها الآن كبيرة... وأكبر من أن يعزّيها فيها أحد .

تلملم بعضها... ترفع رأسها... تنظر بعينين لا مباليتين... كأنها تشاهد شريطاً صامتاً تختلط فيه الأخيلة السوداء... ما عادت تكترث للجالسات... نهضت من على كرسيها دون أن تلتفت لأحد... لم تنتبه إلى نفسها إلاّ وهي في سيارتها... ترتب قلبها المتعب... وتختصر مسافة الجرح والابتسامة .

لا تدري أتسلم نفسها لحياة جديدة أم لموت الليل الباقي... ؟

أمام القرار الصعب... تحاول أن تتخلص من هذا الساكن في أعماقها الذي جعلها لا ترى في هذا الوجود وجهاً غير وجهه الذي أبعدها من الحاضر الجميل وجعلها تعيش بذكريات ماضٍ مغلق .

بهدوء... تفك خيوط الجرح عن القلب... تغمس الروح في ضياء يتوهج فيه الليل الباقي... تعبر دروب الخوف وتجسد الموت شبحاً مرعباً يموت فيه الظلام القديم على أعتاب الفجر الجديد... تقطع المسافة بين الماضي والحاضر... تفتح أفق الحلم الأخضر على أفراح أخرى... تهدم سور العشق الأسطوري... تخرج عصافير الفرح والابتهاج .

يا لروعة سراج القلب حين ينساب كالأحلام في الفجر الأبيض الفضي . بقميص الليل الحريري... تسترخي على أجنحة سريرها النورسي... تضيء قنديل الموسيقى... تغمض عينيها بانتظار الجديد .



الذي قد كان... كان

يطرد الأطياف عن عينيه... يحمل رأسه القلق بين راحتيه... تسيل دموع الحنين غزيرة... يحس بلزوجة... دوائر بيضاء تتراقص أمام عينيه... الزمن... الجامعة... البحوث... هي... هما... تضيق الدوائر حتى تختفي... تطارده أطيافها التي احتلت شغاف قلبه ، أين هي الآن لترى ما آل إليه الحال . ؟

يصمت... يصمت... زوجته الجديدة تسأله :

ـ هل تشعر بتعب... هل تعاني من صداع... تكلم... لا يطيق أن يجيبها... رغم أنها ما زالت عروساً في شهورها الأولى .

ـ ما بك أرجوك... هل أنت نادم على زواجك مني ؟

بأسى يتأمل وجهها الجميل :

ـ إنني مرهق... لم أندم... عندما تزوجتك أردت أن أحيا عمراً جديداً... أنسى عمري الماضي كله... أنسى ذكرياتي كلها... أردت أن تعوضيني عن زوجتي وأبنائي الذين فقدتهم... أمي... حبي الكبير .

ـ حاولت... لكنك لم تستطع أن تنسى أيامك السابقة ؟ تتضايق... تتأفف من كل شيء... جازماً تعتقد أنها أحسن مني رغم انها أجنبية......

ـ الأيام كفيلة بدفن الماضي... إذا نجحتِ أنتِ في احتوائي وأثبتِ العكس... أشاحت بوجهها :

ـ ربما لا أستطيع... دعني أرجع إلى أهلي...

ـ ما الداعي ؟

ـ لا أريد أن أكون شيئاً إضافياً لديك... أعمل كي أملأ فراغ ذكرياتك... فراغ الحنين لحبك الوحيد... أرجوك... دعني بهدوء أعود إلى أهلي ، لقد قررت!

لم يتكلم معها كلمةواحدة طوال الطريق الممتد من الجابرية* إلى قرطبة*... أوصلها إلى بيت أهلها... فراغ وظلام... إلى أين يتجه الآن ؟

فجأة يتوقف عن مزاولة رياضة المشي... يترقب أمواج البحر الداكن العميق... الأمواج تتلاطم أمام الأبراج في الواجهة البحرية... الناس تغدو... تأتي... تروح... «التي شيرت» كوكتيل... أشكال وألوان... مخططة... منقطة ، عباءات سوداء... دراعات صفراء وخضراء... دشاديش بيضاء... نظارات طبية... ماكياج كامل... وآخر ناقص أناس يمشون بهدوء في الذهاب والإياب... واخرون يركضون... يقفون... يضحكون... يصمدون... يتصايح بعضهم فيضفي جواً من الأنغام يندمج مع صخب أمواج البحر الواسع .

كل شيء حوله يفقد لونه وطعمه ويصبح باهتاً لا حياة فيه بعد أن رحلوا وتركوه في ذروة التمزق المجنون... في زرقة السماء... وفي صدى الفراغ المفزع لسواحل السفر واليامال** وهي تداعب الأعشاب الخضراء... تنغرس رجلاه في تبر الرمال... تميد به الأشياء في انكسار الرؤية حوله... يشرد... يسرح بصره متأملاً شريطاً من الصور الحميمة... يتذكر أرصفة الغربة... وأرصفة الغيوم... تجرحه الذكرى... تتدافع الصور إلى ذهنه بإلحاح... يدور الشريط ، يفتح باب خياله على مصراعيه... يستحضر ماضيه حين كان طالباً في الغرب في تلك العاصمة المعطرة بأريج التاريخ والكنائس والتماثيل... يوم وقف أمام أحد المباني متقنة المعمار والمنحوتة بالتفاصيل الدقيقة مثل قطعة الدنتيل المزخرفة... يتذكر... كيف تراجع إلى الوراء رافعاً رأسه ليراقب بدهشة ومتعة لا توصف النقوش في نهاية البناء... فإذا بحديدة حادة تسقط عليه من

* الجابرية ـ قرطبة : اسم مناطق كويتية .

** اليامال : من أغاني البحر .

الخلف وتجرحه جرحاً عميقاً.. يومها تجمع الناس وهبوا لنجدته... وهو بينهم دم ينزف... جسد يخور.. ويدان تقبضان على الهواء بأصابع متيبسة ، تنفسه كان يعلو وينخفض في نهج عاصف... أحد المارة يسأل بلهفة :

ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟

قطعة حديد جرحت... هذا العربي .

جاء البوليس... طلبوا الإسعاف...

يا إلهي عند الخطر كم تتألق الأرواح وتصبح أكثر شفافية...! يتخشب كيانه فوق نقالة الإسعاف... يصبح شفافاً يريد الطيران...

كانت هي ترقب ذلك.. في المستشفى لفوه... بكمادات بيضاء بقلق سألت الطبيبة :

ـ كيف حاله الان ؟

ـ الطبيبة بهدوء :

ـ فصيلة دمه نادرة... يحتاج إلى دم...

لمسات من الارتياح هبت عليها... أشعلت الافراح عينيها... فأردفت بسرعة ومودة :

ـ بإمكاني تزويده بما يريد من الدم لأن فصيلة دمي مثل فصيلته .

الطبيبة تخاطبه برقة :

ـ أنتَ محظوظ...

ـ دكتورة ، متى أخرج من المستشفى ؟

ـ بعد عشرة أيام... أجرينا لكَ عملية تجميلية... بعدها تعود لحالتك الطبيعية .

ـ هل أنتَ جاهزة للتبرع بالدم... الطبيبة تسألها :

تهز رأسها بنعم... وعندما كان يُسحَبُ منها الدم... تهمس وهي تتمتم :

ـ من أجل تلاحم الأفكار والدم وتبتسم له...

❖ ❖ ❖

كل يوم تزوره حاملة له أزهاراً بيضاء... في نبراتها همس خافت وفي عينيها حياء واتزان طالما بحث عنه... وطالما افتقده مع من عرفهن قبلها حتى وجده...

بتكرار الزيارة... حلت الألفة أكثر... ارتاحت له وارتاح لها... وثقت به... وثق بها... ناقشته... ناقشها... لمس منها ثقافة واسعة وأدباً جماً... وحباً طاغياً توزعه على الجميع .

لم تكن صيداً سهلاً... بل كانت تقف أمامه بشموخ العقل... وهدوء الرأي لترضي طموحه وأحلامه وهو يعيش في عزلة المستشفى ذلك العالم الساكن... بين الأطباء والممرضين والممرضات... وهي بينهم تحيطه بحنانها... بحبها... بطيبتها... وإنسانيتها المعطاء .

لقد أدركت انها معجبة به أيما إعجاب... بل هي عاشقة ومغرمة... فهي طالما حلمت بمثل هذا الرجل الشرقي الوسيم .

غابت عنه ثلاثة أيام... وحين دخلت غرفته مع باقات الحب والحنان... قفز قلبه حين رآها... أضاءت النور بوجهه... فتهلل بانعكاسات الفرح... مد لها يده ونسج لها مكاناً على السرير إلى جانبه... جلست على حافة السرير... قلبها يدق...

ـ أين أنتِ طيلة هذه الأيام الثلاثة ؟

ـ كنت أبحث عنك

ـ تبحثين عني وأنتِ تعرفين مكاني...!

ـ أبحث عنك في أعماق نفسي لأجدك...

ـ يمسك كفها... يعصره بحب...

ـ أريدك زوجة لي...

هدوء... صمت... تخفض رأسها بخجل جميل... ينظر إليها بعمق شديد... وبصوت عميق :

- أشياء كثيرة تشدني إليك... روحك الصافية... ابتسامتك العذبة... طيبتك المتناهية...

ترفع رأسها... تنظر إليه... تتلاشى المسافات بينهما... وبسعادة بالغة تجد استجابة سريعة تنبثق من داخلها طالما انتظرتها... استجابة في الذات التي توقدت في اندماج النفس والقلب والروح...

- تمسك يده براحتيها... عيناها تلمعان مثل نجمة خجلى... تبتسم... يسألها وعيناه تلمع ببريق أخضر :

- هل أنتِ سعيدة... ؟

- منتهى السعادة والفرح... لا أفكر بشيء إلاّ بك يا حبيبي... هل تصدق قالوا لي... إني أشبهك... أصدقهم بزهو .

يضحك... وتضحك...

يضحك عميقاً :

- خطر لي أني رأيت مشهداً لنا في فيلم فرنسي...

- ليس فيلماً... إنها الحقيقة الجميلة...



حين غادر المستشفى دعته . ليتعرف على أسرتها... أمها أرملة مسنة تودع الحياة... ليس لها عمل إلاّ أعباء المنزل والذهاب إلى الكنيسة... أخوها متزوج... وأختها متزوجة...

ورغم آرائه وآراء أهله الحادة في الزواج من الأجنبيات... بدل بنت الديرة التي تفهمه ويفهمها... وتفكيره بأمه وهل ستقبل زواجه منها... وردود الفعل والرفض... ودراسته وطموحاته العلمية التي هي كل أمله في الحياة... إلاّ أنه

عرض عليها الزواج... وقد تخيل أمه ماثلة أمامه على سجادة الصلاة ويدها مرفوعة للسماء بدعواتها :

ـ عسى الله يوفقك يا وليدي وتقر عينيَّ بضناك... يا وليدي... إياك والزواج من الأجنبيات .

يشتاق إلى رائحة ملفعها القديم المرشوش بماء الورد والطيب الزكي... يشتاق إلى طيبة قلبها... أم مشحونة بانبل العواطف .

ـ هي تريد أن أتزوج من تريدها... وأنجب أولاداً...

ينتفض يشعر بالدماء تندفع غزيرة في عروقه... يغرق في شروده... يهمس :

ـ أمي لا أريد أن أرفض لَكِ طلباً . لكنها حياتي وسأكيفها كيفما أريد .



ليلتها لم تذق طعم النوم... فرحةً بدخولها عالمها الجديد...

أمام القس اعلنت خروجها عن دينها وتم عقد الزواج الديني... ومراسيم الزواج... التف حولها أهلها والأصدقاء يتبادلون التهاني... هي بينهم قمرٌ في أبهى حلاها... وإلى جانبها حبيبها الذي يشاركها المقعد والمصير... بوجهه الأسمر الذي لفحته رياح الصحراء... وكسته الحرارة الشديدة بالطباع الذكية... طباع البدو حيث الشموخ... والوفاء... والتاريخ الأصيل .في الصباح الباكر استقلا القطار للأرياف حيث الجو الجميل النقي... والمناظر الخلابة والطبيعة الساحرة... وهدوء الأعصاب... أحس انه يعرفها منذ أمد بعيد... يحمل معها ذكريات الطفولة والصبا... كلمح برق خاطف انقضت أحلى الأيام... وعادا إلى منزلهما... عملاً... مثابرة واجتهاداً... دراسة ونجاحاً... ثم تكلل هذا الزواج بوضعها طفلاً هو ثمرة حبهما...... وحصوله على الشهادة العلمية .

ذات ليلة جاءها ليبلغها قراره... الإسراع للعودة إلى وطنه الكويت... فقد مل من سنوات الغــربة... وزاد حنينه وشــوقــه إلى أهله وإلى تراب وطنه... الوطن... آه هذا الاسم المقدس... إنه دم في الشرايين... لغة... وحياة .

ورغم أنه لاحظ عليها شيئاً من التردد... لكنها لا تستطيع الإفصاح به... فهي ترتاح معه أينما كان... جمعت ملابسها... وجهزت حقائب السفر... وودعت أمها الطيبة المسنة .

❖ ❖ ❖

ها هو ثانية في وطنه... إنها الحقيقة... يسير فوق الأرض التي أحبها دوماً يعود لوطنه وبين أهله وصحبه ليعيش أهنأ أيام حياته... اندمجت زوجته مع الحياة الجديدة... والناس الجدد... هي بينهم مرحة... ذكية... بشوشة... لا تغضب من أحد ولا يغضبها أحد... سلسة لينة... يحبها الجميع .

وقد توجت هذه السعادة الوردية بطفلة جميلة إلى جانب أخيها... فرحت... واعتنت بها عناية بالغة . وأحاطتها باللعب الصغيرة الضاحكة... تناغيها... تدللها... تحدثها :

- صغيرتي أشكلها كيفما أريد .

لقد ملأت ابنتها وأخوها حياتها كلها... فتغير إيقاعها... إلى جانب المباهج التي حولها... والزيارات التي تقوم بها إلى أمه وإخوانه والأصدقاء... كل ذلك ألهاها عن كل شيء وشغلها حتى عن أمها المسنة التي كانت تتصل بها بين الفينة والأخرى لتطمئن على أحوالها . وحين علمت بتردي صحتها... استأذنته بالسفر للاطمئنان عليها... لم يتعود أن يرد لها طلباً... بل كان يحاول إدخال السرور إلى قلبها بكل الطرق... لأنها كانت تعامله إلى حدٍ ما بمثل ما تعامل به الأم وحيدها... كان هو وحيدها في وطنه ووطنها... حبيبها وصديقها وزوجها .

سافرت مع ولديها... ومزيج من المشاعر طافت بها... الفرحة... البهجة... القلق... الحزن... كانت حزينة على فراق زوجها وحبيبها والمكان الذي تعودت عليه... وفرحةلأنها سترى وطنها وأهلها... و... و... و

في مقدمة الطائرة تجلس مع صغيريها... تضع أكفهما بين راحتيها بحنان يتلبسه فرح العافية... تتوهج... تغمر نفسها وطفليها بأحاسيس ومشاعر دافئة...

طفلاي أنتما عمري...

طفلها البكر لا يتجاوز العامين وطفلتها في عامها الأول .

بدلال يهمس الأول : ماما العزيزة... يا أغلى الناس... أحبك... بقدر هذه الغيوم المحيطة بنا .

تصل الطائرة... لا أحد في استقبالها... تنقلهم السيارة لبيت الطفولة والأحباب... في الأرياف... على امتداد الطريق بساط أخضر... طبيعة ساحرة... ورذاذ المطر ينسكب في النفس...

تسلل الظلام... تلبدت السماء بغيوم سوداء... زوبعة... ورعد شديد... البرق يضيء سكون الليل... ورياح العاصفة عاتية تقصف كل ما أمامها... المكان يهتز... الفرقعات كبيرة...

داهمها خوف كبير ووجل على صغيريها... ظهر عليهما الهلع والاضطراب... ضمت ولديها إلى صدرها بحنان... هدأت من روعهما... أحست بضعفهما وصراخهما... دمعتها تختنق... مقاومتها تنهار... تلفتت كالمعتوهة... أجهشت... غابت عن وعيها... انزاحت عجلة السيارة المجنونة... تزحلقت في الطريق الملتوي... انحرفت بعيداً في سرعة مذهلة... توقفت بعد أن اصطدمت وانحجزت بين الأشجار الكبيرة... تهدأ العاصفة هدوء الأموات... تجف السماء... تغرق الأرض بدموعها... يمتص الفراغ والظلام والتراب الحزين فلذات كبدها .

تنقل للمستشفى... تهادت أمامها أمها... ولداها... زوجها البعيد... ترفع رأسها نحو النافذة... تغيب رؤيتها في ضوء النهار... وفي سواد الليل... كل ما في رأسها وصدرها يتشابك... يسقط في الظل... إنها تكره أن تعطي لأشيائها ظلالاً كثيفة... تتعافى رويداً رويداً... في بيت أهلها الليل يسقط في الصمت... والنهار يسقط في الصمت... لا ترد على أحد... تدخل في صمت طويل لا ينتهي...

❖ ❖ ❖

ـ يجيئه النبأ صاعقاً... ساحقاً... يرتطم بعضه ببعض... يتهدم فيه كل شيء... يهوي دفعة واحدة...

ـ ولدي... بنتي... أين أنتما... هل حقاً رحلتما... حقيقة... خيال... شيء بين الحقيقة والخيال .

تموت كلماته في مهد اللحظة المتهدمة... يقتلع آهة نازفة من غور بعيد في النفس ، يحاول الاتصال بها للمرة الألف لم ترد ، يرسل لها أخاه لتأتي ، لم ترد ، قررت البقاء هناك وعدم العودة .

بالأمس مرت ثلاث سنوات على فقد الأحبة . يسأل الأحجار ، الموج ، المحار والرمال .

يستعيد السنين... يسترجع دفء المشاعر... يتناثر كلام الحب أمامه... في عينيه صور عجز عن طردها... يتأمل كل لحظة... كل همسة حب حفرت في الذاكرة...

يطوح نظراته في اللا مدى... تضيع في لا نهاية هذا البحر الممتد أمامه كما السر... كما التعب العميق... وجهه للبحر الأزرق... ألوان من الناس... آهة عميقة موجعة تخرج من أعماق صدره... يحس بذروة التمزق المجنون .

ما عادت الأشياء تتمايز الفرح الحزن... كل شيء في ظل اليأس... لا شيء .

ساعات مرت منذ أن وصل لمزاولة رياضة المشي... في الواجهة البحرية... هنا... تجد فرجة على الناس... وفرجة الناس عليك . الساعة بلغت الثانية بعد منتصف الليل... يقترب بسيارته من الشاطىء... يستمر في صعلكته السياحية... يتنهد :

ـ آه... آه...

قدماه تمضيان به فوق رصيف الشاطىء النائم... الصمت يلف الليل والمكان والمساء... لا أحد معه... ولا أحد له... وكل الحياة في صدره... يتذكرها الآن... لا يستطيع أن ينساها... كانت هي اللؤلؤة التي استخرجها من قاع المحيط البعيد... يتذكر ما كانت تهمس به في أذنه :

ـ أرى في عينيك عمري...

نظراته أمام البحر تسافر بعيداً ولا تعود... تدخل أعماقه وتحبس... يمشي... يذخل سيارته... السيارة تطوي الفراغ والرياح على امتداد الخليج العربي... بقوة يضغط على البنزين... يدندن بأغنية يحبها... يعود للبيت... يشعل الأضواء كلها واحداً بعد الآخر... ضوءاً ضوءاً... يشعلها وهو يدفع الظلام عن بيته... ومن صدره... يدفعه بعنف... بعيداً عنه... بعيداً عن حياته... بعيداً عن الزمن... الزمن لا يتقهقر... لا يتوقف... فالذي قد كان... كان... الماضي لا يعود... إنما يترسب في الأعماق ذكرى وحنيناً...

يحس بشيء من الراحة... يقود سيارته متجهاً لمنطقة قرطبة*... يعود بزوجته... في خطواته تفوح رائحة الحياة... في وجهه تبزغ شمس صغيرة... بدا نورها يكبر... يكبر... يرسم أحلاماً بيضاء ساطعة كالشمس... الشمس في الكويت ساطعة في كل مكان .

---

* اسم منطقة كويتية .



الصورة المعلقة

دسست جسمي المتعب تحت الأغطية... واتكأت على وسادة خلف رأسي لأقرأ قبل أن أنام... لكني لم أستوعب... أطفأت النور ووضعت شريطاً في (الكاسيت) سرعان ما غيرته .

لم يكن في الغرفة سوى شعاع الضوء المتسلل عبر النافذة راسماً دوائر ومربعات فوق السرير... وصمت واسع يتحرك جسدي فيه .

محاصرة كنت بين العقل وبين الصورة المعلقة أمامي والتي توقظ أبداً أحداث ذكرياتي من دياجيرها... وتجسد مشاعر طفولتي البريئة .

لم أفترق يوماً عن هذه الصورة الحبيبة التي كنت أحملها في أسفاري وتنقلاتي... وأرى الزمان في بحر عينيها العميق... فأنسى ما قد أساء لي .

ـ أرجوك حولي ناظريك عني فما في مقدوري مواجهة ابتسامتك الحنونة الساحرة ولا نظراتك الحانية التي تتبعني أينما تحركت كنظرات الموناليزا (الجيوكاندا) لدافنتشي .

الصورة المعلقة... شاخصة نحوي... حاملة بسمات الرضا على شفتيها . فجأة تغادر الصورة الإطار الفضي المعلقة به... تمشي في ضوء غرفتي الخافت... كالذي يمشي أثناء النوم... تندس تحت اللحاف قربي... تقترب مني... أبتعد... أزحف لآخر السرير... تقترب أكثر أبسمل... لكني أعرف هذه الأنفاس المألوفة الحميمة المعطرة بالحنان... عشت عليها منذ طفولتي... أعرف هذا الطيب الأصيل... المسك... العنبر... وهذا الملفع المرشوش بدهن الورد والعود الذي

حضنني... غطاني... وأنا طفلة أرضع الحليب .

تلتصق بي... تمد يدها تلامسني... أشعر برعشة تسري في بدني... أتكهرب... أقفز... أصرخ... يتحرك الفراش بي... أقوم أرفع الغطاء والشراشف... أبحث تحت الفراش وفوقه... لا شيء... لا شيء .

لا أدري كم مرّ من الوقت عندما نهضت من فراشي... بدأت أبحث وأفتش دون إرادة مني... ودون أن أرى ما حولي... كان انتباهي كله موجهاً إلى الصورة المعلقة .

في دهشة وتلعثم أحدث نفسي :

ـ أمي معي في الغرفة... تتحرك... شممت رائحتها... شممت أنفاسها... سمعت همساتها... توقف قلبي... كتمت أنفاسي... كنت أخاف أن أتنفس فتختفي... لكنها اختفت كالغيمة... كالدخان... وأصبح بيني وبينها جدار من البلور... أفرك عيني... أقرأ المعوذات... يا رب هل أنا أتخيل أمي... ؟ هل هي تعيش معي... ؟ هل أنا أحلم ؟

أخذت أنفاسي اللاهثة المتلاحقة... تعلو وتهبط... تلفت يميناً... شمالاً... هل ذابت كفص الملح... أين... أين... لا... لا أستطيع انتزاع أمي الغائبة الملتصقة بذاكرتي .

أبكي... أبكي... أفتح عيني على سعتهما... حين أرى طيفها جلياً واضحاً... تمد يدها لي... تحاول أن تسحبني نحو السماء .

تسمّرت في مكاني... تملكني خوف رهيب... تجمد الدم برأسي... تثاقل تنفسي... أحسست بجبل رصاص يثقل صدري... قفزت والعرق يتصبب مني... لمحتها عند الباب... فتحت فمي أردت أن أكلم الإنسانة التي رسمت حياتي... أناجي وجهها الذي كان للحياة نافذتي... أطلق أشواقي لها... أبثها ألمي الدفين... والعبء الثقيل الذي تركته عليّ بعد كانت لنا وللبيت العتيق كالملاح

في لجة البحر .

أمي... أمي... لكن الصوت احتبس في حلقي... تقلبت على جنبي... أغمضت عيني... فتحتهما... أحسست بحركة خفيفة قربي من جديد .

بين اليقظة والمنام وجدتها رويداً رويداً تختفي... أردت أن أرفع يدي لألوح لها... أحسست أن يدي ثقيلة وكأنها مشلولة... أسبلت جفوني وتركت ظلام أعماقي يمتص نور الغرفة الخافت... أغمضت عيوني... أحسست بسريري المخملي يغوص بطيئاً داخل تابوت إلى قعر واد عميق ساكن كالقبر ،



لازمت أمي طيلة مرضها الذي بدأ بآلام في فقرات الظهر ومفاصل القدمين فكان يتعذر عليها الوقوف والمشي ، إنه (ديسك) ذو آلام مبرحة تخز جسدها طوال الليل كالإبر... وتتركها تتقلب في فراشها .

الإعياء الشديد ظهر عليها رغم محاولاتها لإخفائه عني كي لا أتعذب... لكني كنت أسهر معها... أغير لها لصقات (الفيكس)... الكيس الساخن الذي تضعه تحت جنبها... أسقيها كأس الماء... أرقب لها مواعيد الدواء... وأراقب كل حركاتها وإيماءاتها وحتى أنفاسها... لقد كنت دون منّة الابنة... والممرضة والأخت... والأم لأمها .

تفرغت من كل التزاماتي ورفضت القيام بأي واجب اجتماعي ما لم أكن مرغمة على ذلك .

شاركت الحبيبة آلامها كما لو كنت أنا التي أعانيها... أقدم لها المهدئات عندما ألاحظ هذيانها... أدثرها بالأغطية لأحميها من القشعريرة... أجلس إلى جوارها على حافة السرير... أحدق في وجهها الأبيض الصافي المريح الذي لم تستطيع سنوات التعب الطويلة أن ترسم تجاعيدها عليه .

عيناها الصافيتان الحبيبتان مغمضتان... تلك العينان التي كنت أستمد

قوتي منهما... وحين أنظر فيهما تشرق لي الدنيا وتبتهج أقترب منها أكثر... أشدها لي... أشم شعرها الأسود المنساب إلى صدري بقوة... يا لطيب صدرها...! أشبك أصابعي بأصابعها . فأحس بالعمر الجميل يتسرب بين الأصابع... تسحبه الخيوط اللعينة... خيوط المرض المحكمة .

أعود لأحضنها بشوق مرة أخرى... وكأني أحضن الدنيا بين ضلوعي... لم أترك يدها... أخشى أن أفقد تلك اللمسة الحانية في قبضتها... أستنشق عبيرها الذي هو توأم رائحتي وسنوات عمري التي مضت والتي هي جزء من سنوات عمرها... يا بعد عمري... فيَّ ولا فيك... وفيما يشبه الهمس أغني لها (ست الحبايب) و(أمي يا ملاكي) أروي لها صوراً متتالية تتلاحق أمامي :

ـ آه يا أمي الحنون كم أحبك...! وكم تحبيني...!

هناك حب يَبْني... وحب يهدم... الآن وأنت متعبة لا أريد أن أذكرك بحبك الشديد لنا عموماً ولي خاصةً... حب عنيف حتى الموت... أتذكرين كلامك لي حين انكسرت ساقي اليمنى وأنا ابنة الثماني سنوات... وبدل أن تحمليني للطبيب... حملتني إلى (مجبر قديم) وضع عيداناً دقيقة على جهتي العظم المكسور وربطها بشدة... ليلتها لم أستطع النوم وحين سمعت أنت الحنون الشفوقة أنيني المتواصل المؤلم الموجع... قمت بحنانك المعهود وفتحت الرباط كي لا أتعذب... فخربت الرجل التي لم تعالج جيداً بسبب حبك الزائد المفرط الذي ورثته عنك .

وأتذكر «يا لحبيبة» حين ينهمر شتاء وابل المطر... ويأتي الباص لينقلنا أنا وأختي إلى مدرسة المرقاب*... نهرول بأحلامنا البريئة... تَظَهَرين أنتِ للشارع وتؤشرين للباص بالذهاب خوفاً علينا من البرد القارص والمطر الشديد... تدخلين للبيت... وتجلسينا قرب (دوّة الفحم)*وتقدمين لنا الحليب

* المرقاب : حي من أحياء الكويت .

الساخن... والكستناء المشوية .

وفي الغداء تحرصين أيام البرد والمطر... أن نحتسي شوربة البقول المتنوعة... وشوربة العدس .

وأتذكر يا أمي... حين كُنت أغفو تعباً وأنا أذاكر للثانوية العامة وكتاب التاريخ مفتوح على وجهي... يدك الحانية تربت على شعري وخدي... تسمّي عليَّ وتوقظني :

- بس قومي يا ابنتي الحبيبة... اسمّ الرحمن عليك... قومي لفراشك نامي... غداً الامتحان .

وحين استيقظ في الفجر لأكمل مذاكرتي... أراكِ تعدين لي الافطار... خبز التنور الحار... شرائح الجبن الأبيض... النعناع... والزيتون... وعلى الجانب الآخر صينية الشاي والحليب .

- يا إلهي كل هذا في الصباح الباكر .

تردين بصوتك الحنون :

- من أجل أن تكوني قوية للامتحان... سمّي بالرحمن يا ابنتي وأنتِ تقدمين الامتحان... وسمّي وأنتِ قادمة للبيت... يحفظك الرحمن ويحرسك من العين .

أمي الغالية أتذكرين أخواتي كيف يزعلن حين يسمعن صوتك الشجي الحنون بالهاتف يرد عليَّ :

- سمّي وأنتِ قادمة .

ومن على البعد أسمع صوت احتجاجهن :

- لماذا هي فقط تطلبين منها أن تسمي بالرحمن وهي عائدة للبيت ؟ هل هي فقط الأثيرة عندك ؟ .

* دوة الفحم ، منقلة الفحم .

وبقلب الأم الأبيض ونواياه الطيبة... تضحكين وأنتِ تردين عليهن بسخرية طيبة :

ـ كلكن بالمعزة والمحبة نفسيهما .

مضت ستة أشهر على مرض أمي المضطرم... كانت كل واحدة منا تعيش لتفكر بالأخرى... لكن يقيناً أدركت ما أصاب أمي وإن لم أطلعها على مجريات الأمور... مصائب تتبع مصائب... يوماً بعد يوم لا ينفع معها الدواء... محاصرة بالأمراض... لكن لا أريدها أن تتألم .

بقيت طريحة الفراش... تنام أكثر مما تستفيق... تعطي الانطباع أحياناً بأنها تنسى من تكون ؟ لا أدري هل هو ضباب شيخوخة الخامسة والسبعين ؟... لكن أدرك تماماً أني أراها شابة في السبعين .

في مساء اليوم التالي ساعة العشاء... زادت حالتها سوءاً... امتنعت عن الطعام... إسهال... تقيؤ... مرة أصفر... مرة أخضر... فقدت القدرة على الحركة... ومواصلة التصرف السليم... أصيبت بإغماءات مفاجئة... نبضها ضعيف... تنفسها بطيء... يتصبب منها العرق... اتصلت مسرعة بطبيب العائلة الذي جاء حاملاً حقيبته مع ممرضة رقيقة شعرها مصبوغ باللون الذهبي .

الطبيب قاس درجة حرارتها... جس نبضها... قلّبَها جهة اليمين... فتح عينيها... وضع السماعة على صدرها . الممرضة أخذت تجهز الحقنة والقطنة المبلولة بالمطهر... لكن الطبيب يطلب منها أن تتصل بالإسعاف .

يقرر وهو يلتفت جهتي :

ـ يجب نقلها للمستشفى حالاً... حالتها خطيرة... تجد معاناة في التنفس .

لم أتركها وحدها... ركبت معها بسيارة الإسعاف لمستشفى مبارك... أكاد أختنق ألماً وأنا إلى جانبها... دنوت منها وجدتها تذوي... تذوب بجسمها الذابل الهزيل... يعتصر قلبي وأنا أرى المرض يفترسها... شعرت أني لن أحتمل

المزيد من القسوة وأنا أرى الحياة تنسحب من الحبيبة رويداً رويداً... كل شيء أمامي تحول رمادياً... قصور الشارع المشيدة تكاد تنهار أمام عيني... الشوارع تضيق... تضيق... بدا مستحيلاً عليَّ تلمس حتى أريج الياسمين والفَل الآسر الذي حملته إليها مع ما تحتاج من أشياء بسيطة وضعتها في حقيبة ملابس صغيرة... آه كل شيء بدأ أصغر مما كان عليه قبل ذهابنا للمستشفى... على طول الطريق القصير لم أرَ شيئاً يستحق أن ألتفت إليه... أحسست بمشاعري تتلبد... وبالهزيمة والمرارة... أدير وجهي جهة النافذة كي لا أرى الغالية تتعذب... أبتلع ألمي... أبكي بصمت وحرقة... وأقرأ عليها كل الصلوات والآيات التي أتذكرها... والتي تقال في مثل هذا الموقف الصعب في الجناح الثاني عشر... باطنية... وفي الغرفة الخامسة خصوصي .

لم أتوصل إلى النوم ليلة كاملة طوال الأسبوعين التاليين... أمسك يدها... أحس بها باردة متشنجة... أسمعها تئن بحشرجة مكتومة... أقوم أضع لها موسيقى هادئة... دقات بيانو... عزف عود... أوقف الموسيقى... أتلو عليها من كتاب الله كما أوصتني أختي... سورة ياسين... آية الكرسي... وآخر ثلاث آيات من سورة البقرة .

أعود ثانية... أمسك يدها... أحس أنها دافئة وطرية... مبللة بندى رقيق... بدت ملامحها عادية... أصلي... أسبح بحمد الله وشكره على عنايته الإلهية التي رحمت ضعفها ووهنها .

حين أطمئن عليها... أمتلىء بالسعادة المنتشية... والانطلاقة الرائعة... أعود للبيت بالأمل الجميل والحلم الأجمل... أستحم... آخذ حماماً بارداً يعطيني إحساساً باللذة والانتعاش... أتمنى أن أغسل من خلاله كل تعبي وأرقي... أبقى تحت هذا الدش اللذيذ أحلم... أحلم .

فجأة أتجمد في مكاني... تصطك ركبتاي... تصعد الدماء حارة حارقة إلى

وجهي... حين أسمع طرقات الصوت الباكي متتالية على باب الحمام .

ـ افتحي... افتحي .

بفزع ألبس ثيابي... وبذعر أفتح الباب .

ـ أمك ماتت... أمك ماتت ؟ ؟!... البقية في حياتك .

شعرت أن قلبي يتفجر... مددت يدي إليه اتحسس النازف منه... لم يكن دماً... كان دموعاً عميقة حارقة... ملأت صدري وانسابت نازفة على وجهي الحزين المفجوع .

❖ ❖ ❖

الساعة السابعة صباحاً... ٢٨ يوليو... أواخر القرن العشرين المفضي إلى الامحاء... توقف التنفس... وسكت القلب الخفاق بالمشاعر الرقيقة الحنونة... مشاعر انصهرت في الجراح... وانسابت في توجيه كل الأحلام والرغبات والحب الكبير للأبناء .

انخرطت في بكاء مستمر دون أن أجهش... وظلت دموعي تبلل خدي وحلقي... حارة نازفة صريعة حزن اليتم .

انطلقت لمستشفى مبارك... كانت في رحاب الموت هادئة... ترقد بسلام... ألقيت عليها نظرة الوداع .

كم هو مفجع ومؤلم أن تتسلل الروح من جسد من نحب وتختفي أمامنا... مفجع أن يتجمد ويشحب وجه شجرة العطاء وعمود الضياء الذي ملأ البيت حياة... آه كيف يذبل هذا الجسد الذي كان يضج بالنشاط ؟!

كيف تخمد تلك العينان اللامعتان الجميلتان"... كيف يضعف هذا الرأس البهي المستغرق أبداً في عشق الحنان... ومتعة الحوار العذب... وصنع الأحلام ؟... كيف ينطفيء هذا القلب المفعم بالبياض ؟...

يا وردة في شراييني... يا من علمتني من أكون... وكيف أكون... يا من

جعلت حياتي أكثر اخضراراً وأحاسيسي أكثر شفافية .

حدقت في وجهها الرزين الحبيب المبتسم... وجدتها جامدة لا تتحرك... تحسست خديها... ارتعشت أصابعي وسَرَتْ في جسمي قشعريرة باردة... تمنيت أن يخترقني الموت بدلاً منها... انحنيت عليها برهبة... عانقتها... قبلتها قبلة حب طويلة... خلفي صوت ينادي من ؟... لا أدري ؟ لكني أصغيت... الكون معي يصغي .

ـ ماتت وهي تبتسم كالملائكة .

رافقتها حتى اللحظات الأخيرة للدفن... بجوار رأسها أخذت أقرأ القرآن... أخي يربت على كتفي... يسحبني... يطلب مني العودة للبيت قائلاً :

ـ سرعة دفن الموتى إكرامٌ لهم وللموت .

أعود أقدم له... شتلات من النعناع والريحان والورود... ليزرعها على قبرها... وينثرها على نعشها .

❖ ❖ ❖

في بيتنا الرحب بدأت أجمع الجراح على الجراح... أحاول أن أسدل ستائر الحنان على منارة الدار... لكن الصورة المعلقة... صورة حبيبة الأمس واليوم والغد لا تفارقني نظراتها... تلاحقني مهما ابتعدت... تنظر لي ملياً أينما اتجهت... تركز على وجهي... أناجيها وأغص لها بالأشجان... أطبق عيني على أحلام تقتل الأحلام... أجتر معها الآلام والأحزان .

من رحم الظلام يتراءى لي طيف آدمي يرتدي بياضاً... قادماً... نحوي من النافذة... من الباب... أهو حلم واقع... ؟ لا إنها هي الحبيبة الغالية... النظيفة الشفافة... في ثياب بيضاء... نظيفة القلب والروح... أتت تمنحني نفسها... تحاول أن تسحبني نحو السماء .

مضت شهور وأنا على حالتي... مذهولة... أرفض الواقع المُرّ... أحَلّق بالخيال .

تعـذبني النظرات التي تطاردنـي في اليـقظة وفي المنام... في أوقات الـليل والنهار... أستمتع بالعذاب .

أناجي الصورة وفيديو الذكريات أمامي... يتدفق داخل الفكر والرأس... أحياناً أهرب... أحاول أن أتفادى النظر إلى عينيها... لكن شيئاً تلقائياً ما يجذبني إليـها... في خلسـة أحـملق فـيها كثيـراً... روحـها حيـة تحاكـيني... تخاطبني... تناجيني... أبكي على كتفها موت أبي... أضحك معها حين أتذكر جلسـتها المريحة... سوالفـها* السلسة... وحزاويها* الصغيرة... نصائحها... حديثها الرصين الآسر الذي يشدنا إليه شداً محكماً... صلواتها... دعواتها الصالحة وهي ترفع يديها للسماء .

بهدوء اقترب... اقترب أكثر من الصورة... أهمس لها :

ـ أمي ايتها اللؤلؤة الأصلية... صاحبة الطيب الأصيل... ما أطيبك... أنا لا أملك ان أغير البيت العتيق... بموتك أرى موتي الآن .

ارجوك... حولي نظراتك عني فما في مقدوري مواجهة بريق عينيك الآخذ... ولا نظراتك التي تتبعني اينما تحركت أو ابتعدت .

بصلابة وتصميم... أمسح بوجهي نظراتها المتألقة... أرسم على شفتيَ ابتسامة عذبة كابتسامتها الحلوة الساحرة... بأصابعي المرتجفة... أرفع الصورة المعلقة... أقبلها أضعها في علبة زرقاء مخملية... احتفظ بها وديعة غالية... أطلب لها الرحمة والغفران .

أدور أرجاء الغرفة... أزيح الستارة عن النافذة لمزيد من الإنارة... أسحب نَفَساً عميقاً... أملأ رئتي بهواء البنفسج المعطر بالحب الكبير... وابتسامة متوهجة تملؤني .

---

* سوالفها وحزاويها : حكاياها الشعبية .

شموخ قمر العارضية

وصلتنا دعوة الزفاف... لتلك الليلة الموعودة... ليلة الفرح... التي أقيمت مساء الأربعاء أول أغسطس الساعة الثامنة... في صالة الأفراح بمنطقة العارضية .

في طريقنا للاحتفال... كان علينا أن نكون سعداء... لكننا لا ندري لماذا كنا نفقد القدرة على الفرح... ؟لماذا كنا نشعر بالانقباض والاكتئاب... وكأننا نسير في طريق لن يوصلنا أبداً لصالة الزواج .

السيارة تسير بموازاة الأفق البعيد... ما بال السماء تلونت بزرقة رمادية غير عادية... ؟ ما بال السحاب الأبيض المتفرق يرسم تجريداً لوجوه مركبة مخيفة... ؟ ما بال القمر الشامخ غارقاً في بحر الصمت يرسل أشعته الباهتة الحزينة... ؟ تذوب الأسئلة... تتلاشى على صوت الهتاف :

ـ وصلنا... وصلنا...

صالة الاحتفال الكبيرة بدت مكتظة بالناس... تسبح في بحيرة الأضواء... حولها حشد من أنواع السيارات .

النساء... سافرات... محجبات... مبرقعات... كفوفهن مخضبة بالحناء... يعبق عطرهن الفواح... تفوح رائحة البخور ودهن الورد من أردانهن... تتراقص على شفاههن الدعوات للعريسين :

ـ اللهم بارك لهما... وبارك عليهما... واجمع بينهما بالخير .

ترتفع الزغاريد... يعلو صوت الغناء... الأنغام والألحان طوفان... الأشرطة ذات الإيقاع النقازي* مطلقة من عقالها حتى تكاد أن تدك الصالة دكاً .

بالقرب من حلبة الرقص تنثني العروس على صديقاتها وتدعوهن للرقص وهي تقول :

ـ ليلة الفرح هي الليلة الشرعية للرقص والغناء .

وسط الضجيج الذي يملأ الصالة يأتي صوت من خلف المكرفون ينبه الجالسات بقدوم العريس... يُفسح الطريق...

يدخل العريس بالبشت** الأسود المقصب*** يصحبه الأهل والأقارب والأصحاب... يتقدمهم حملة المباخر وماء الورد... يقابل بالتهاليل وزغاريد النساء... والغناء على صوت الطيران :

ـ عليك سعيد... عليك سعيد ومبارك...****

ولا إله إلاّ اللّه...

بغتة... وسط أصوات الدفوف والأنغام تهمس أحداهن بأذن الأخرى .

ـ ألاّ تلاحظين أن معظم الذين يزفون العريس من أعضاء مجلس جمعية العارضية :

ترد عليها :

ـ طبعاً لأن العروس هي ابنة أحدهم .

تقترب منها أكثر وتوشوشها :

ألم تعلمي بأن الذي يقف بالمنصة بجانب العريس هو مبارك رئيس

---

* الإيقاع النقازي : الإيقاع السريع الراقص .

** البشت : عباءة الرجل .

*** المقصب : المطرز بالزري .

**** أغنية للافراح الكويتية .

الجمعية .

تلتفت إليها :

ـ هل تعرفينه ؟

ترد عليها وهي تشير إليه بسبابتها :

ـ أجل أعرفه لأن ابنته (رشا) في مدرستنا... كل يوم يوصلها بنفسه .

تنتهي الزفة... يبدأ العشاء... تتواصل أغاني الأفراح... تتعالى أنغام الطبول حتى بزوغ الفجر وطلوع الصباح .

أخت العريس تدور بين المدعوات وهي سعيدة... يرتفع صوتها بنبرة الفرح :

ـ يا إلهي... من يصدق أن الفجر يشرق وما زلنا نحظى بهذا الجو السعيد... وبهذا الكم من الفرح... الوقت مَرَّ علينا بسرعة... بسرعة غير حقيقية .

ما إن أنهت جملتها حتى سرت من جوف اللحظات السعيدة... همهمات... همسات... إشاعات... سرعان ما انتشرت وعَلَت... كسريان النار في الهشيم... خاصة من الداخلين المتأخرين الذين سمعوا أصوات إطلاق المدافع وأزيز الرصاص القادم من الشمال... اتسعت رقعة الإشاعة... بدت ملامحها الحقيقية تتضح... غول لعين يبتلع الوطن .

ترتفع الصرخات... تنطلق الأصوات... يختل العرس وينقلب إلى زلزال... يختلط فيه بكاء الذعر بزغاريد النساء .

يا للفضيحة... بلمح البصر يتحول الفرح إلى مأتم تفيض فيه ضبابية دموع الصغار والكبار... يتدافع الجميع من باب عرس الدموع... كيوم الحشر... يتراكضون وكأنهم يقذفون من عنق زجاجة وسط أحاسيس الذهول والهول والاندهاش .

يحاول مبارك أن يهدىء من روعهم... لكنه يضيق... يختنق... ترتسم على وجهه علامات المرارة والألم... لكن سرعان ما تتلبسه حال من شهامة الرجولة والنخوة والولاء... فتتغلب شجاعته ووطنيته على كل مشاعر الخوف والحزن... يسرع إلى النساء والبنات والأطفال... وجوههم الوردية تلتف بعباءة الدمع الحزين .

يُطَمئِنْ عيونهم الفزعة... وملامحهم المذعورة... يبث فيهم السكينة والأمان... يحثهم على الهرولة... يرتب عودتهم إلى بيوتهم... يطلب من بقية الرجال حمايتهم... والسير وراءهم وسط الرعب... وصراخ الكبار :

ـ رحمتك... رحمتك يا رب .

يسرع مهرولاً... يلملم عائلته... خطواته المتسارعة تسابقه إلى سيارته... يدير المفتاح وينطلق... يحتار حيرة مظلمة بما يحدث على أرضه .

يقف مذهولاً كَنِسر جريح... يضرب كفاً بكف... تحاصره الخطوب .

الممرات مقفلة... الجنود مثل الغربان... سيارات عسكرية... رشاشات... دبابات... قذائف... هدير طائرات... واطلاق رصاص .

لا أحد يصدق... ولكن هذا ما يراه... ثعبان كبير ينفث زفير سمومه السوداء في ساعات الخميس الأولى فينشر الخوف والدمار والموت بين الناس... بعضهم تسيج بالحذر وهو يسمع المذيع ينادي بأعلى صوته :

ـ يا أهل الديرة* الكويت تُغتَصَبْ هبوا لنجدتها .

البعض الآخر يحاول أن يهدىء من صخب الأفكار المتقافزة أمام الخراب والحراب . آخرون مضطربون لم يصدقوا ما حدث .

يأتي صوت مبارك غاضباً ثائراً :

ـ يا للخزي... العار يعربد في الهواء فوق مجد البحر والرمل والصحراء .

---

* الديرة : العاصمة .

تفور أعماقه... يرفض الزيف الفاجر... يرفض أن يحول اللصوص الفاتحون وطنه إلى المحافظة التاسعة عشرة .

يلتقط إذاعة الكويت... نداءات استغاثة... الصوت يخشخش" المذيع يستنجد... يبث روح الحماس والصمود... تشويش... التشويش يختفي... ينقطع الإرسال .



يتنادى الرجال للنضال... والدفاع عن تاريخ وهوية سور البلاد... يتدافع... سليمان... حسين... أحمد... جاسم... مسرعين إلى بيت مبارك... رجل المواقف... من أجل التدارس في شؤون مستجدات الأحداث... يخبرونه برغبتهم بالتضحية بالنَفسِ والنَفيس واستعدادهم بالقيام بأي عمل من أجل أن تحيا أرضهم حرة... يتدافعون يداً واحدة معلنين الصمود والعصيان... يبلغهم مبارك بإحساسه بالخطر... الخطر على الوطن... وفي ساعة الشدة المظلمة هذه يحين وقف الفزعة* دفاعاً عن الأرض... فالأرض لدينا أعز من النفس والولد .

يلتفت إليهم : يجب أن نتوحد بصلابة وقوة حتى تتطهر أرضنا من براثن العدو... علينا بالتماسك والتلاحم كي نستطيع أن نواجه القهر الصعب .

سليمان : الظُلم لا يدوم .

حسين : الحق لا بد أن يعود لأصحابه فما ضاع حق وراءه مُطالب .

أحمد : لن نقف مكتوفي الأيدي أمام هذا الغدر الذي حاق بنا .

جاسم : لا بد أن نَقْضّ مضجع الغزاة .

يشير مبارك إليهم بقبضته الحازمة :

ـ بارك الله فيكم... الأرض محتاجة لكم... أنتم الدروع في هذه المحنة .

أما أنا... والله لو طلب مني أن ألقي نفسي بالموت في سبيل الوطن لما ترددت .

يهز يده اليمنى بقوة ويقسم مرتعداً كَبُركان منفجر :

سأموت على تراب وطني الذي ولدت عليه.. سأموت بلا كفن... جلدي كفني ولحدي .

يقرر فداء الوطن بعزم يعكس باقتدار جسارة الروح لرجل قومي عربي وطني حتى العظم... فكان قراره كحد السيف الصارم البتار .

لم يأبه بالموت... لقد ضرب أروع الأمثلة في حب الوطن والذود عنه... كان مستعداً للتضحية من أجله بكل عزيز وغالٍ دون أن يخشى في الحق لومة لائم .

لكن فجيعته تتفجر بالغضب حين يرى مدينة اللؤلؤة محاصرة بالموت... الجنود المعتدون يمرحون ويسرحون على ترابها المقدس... آلياتهم العسكرية تسحق شوارعها الجميلة الوديعة... الحماس ينهش عقله... يثور... يتحدى بشجاعة وجرأة هذا الكابوس الأسود...

يوزع الشهامة والنخوة على الجميع... يوزع التموين... يزودهم بالخبز والغاز... يبث روح الطمأنينة والقوة في نفوس المرابطين الصامدين الذي روعهم جنود الاحتلال بأسلحتهم وأفعالهم الوحشية .

كان يرسم خططه على كرة بلورية ويطلقها بينهم... يحثهم على التكاتف والتآزر والحذر من التعاون مع المعتدين... ينفذ الإضراب العام... يمد يد العون والمساندة للمقاومة الباسلة... يضع قدرته في خدمة قادتها...

يدعو إلى الاعتصام على أسطح المنازل... جباه الصامدين تئن... أصواتهم تعلو وتدوّي... الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر .

مع زوجته (سلمى) يوزع المنشورات السرية ساعة الظهيرة... ظهيرة الشمس اللاهبة الحارقة التي تشوي الأجساد .

يندفع البطل الجسور بإصرار في تحديه لظلم وجبروت الاجتياح... بإرادة

لا تعرف الانحناء... كان كالجمر المُتَقِدَ في جذور المواجهة الدامية .

يزعزع أمنهم... ويخلخل خططهم... تسربت أخباره إلى مخابرات العدو التي كانت تتابع بقلق مواقفه المعادية لها... تصدر أوامر القبض عليه... ينتشر الجنود للبحث عنه... يداهمونه بإدارة الجمعية... يقف وجهاً لوجه أمام الجنود المتربصين له... والذين هبطوا عليه كالقدر الصاعق .

يقترب أحدهم منه... يطيل النظر... وبصوت قاسي النبرة :

ـ من أنتَ... ؟ أنتَ مبارك!!

السؤال المباغت... يا لقسوة السؤال...

يتكرر سعير السؤال بصلف يتلبسهم من قمة الرأس حتى الأخمص... تتسع عيناه... يتصلب عنقه... تكاد أن تخونه اللحظات الموحشة لبكاء بحر الغوص على الدم المستباح... ينفطر قلبه لظى وهو يتذكر أحلام بناته الصاهلة كصهيل الجياد الراكضة نحو المجد... كيف تتهاوى أمامه الآن في ظلام الطغاة...!

ينظر إليهم متحدياً شامخاً كالشجر الباسق... وبصوت حاد يجيب :

ـ أجل أنا مبارك...

يتجمد دمه... ترتعش أطرافه... تحمر عيناه... يثقل رأسه حين يأمره الضابط صارخاً :

ـ انزل عَلَم البلاد وصورة الأمير وولي العهد .

تنطلق كلماتهم كالرصاص... أو كطعنة خنجر تنغرس في صدره... يزعق... يصيح غاضباً :

ـ لن أرفع وجه الطاغية... لن أستبدل رموز بلدي .

يستشيط الضابط... يجن جنونه... يلسعه الجواب كالنار... يتفجر غضبه... كأنه ضرب في صميم قلبه... يشهر رشاشه... يحدق في عينيه الثاقبتين... لقد

كانت عيناه العنيدتان محمرتين... يلتفت إليه مزمجراً مهدداً :

ـ إذا لم تفعل ما يلزم... عنادك هذا سيأخذك إلى ما وراء الظلام .

يشعر مبارك أن ذاته تنفصل عن ذاته... ذات تؤثر الصمت وتداري من أجل سلامة بيته وأهله... وأخرى تختار التحدي الصعب... كان متوتراً جداً... يعيش جنون لحظته هذه... يثور على سوء معاملتهم... وألفاظهم... يكيل لهم السباب .

يلهث الضابط... يلتقط أنفاسه اللاهثة بتوحش... يعدل خوذته فوق رأسه... يستدرك متسارعاً غاضباً... صوته يأتي عنيفاً آمراً :

ـ يدك فوق رأسك... يدك فوق رأسك .

يدور... يصرخ بالجنود بتوحش... وبعجالة يردد :

ـ اعتقلوه... اعتقلوه"

ـ أمرك سيدي .



اقتادوا مبارك مكبلاً... فارساً بلا حذاء... بين ذراعيه يحتضن الوطن... وفي عينيه الأبية التي لا تنحني يحتضن غضب بحر اللؤلؤ والهولو واليامال*... بازٌ فذٌ أفرد جناحي الديمقراطية والقومية... لم تهزمه عواصف الشمال... ولم تهزمه رياح الجنوب .

ربطوا عينيه بعصابة سوداء... أمام قلوب الناس... وعيونهم التي تعتصر حزناً وأنيناً عليه وهو ينتصب أمامهم شامخاً بصلابة الصخر الذي لا ينكسر كما النخيل السامق .

في زنزانة الاعتقال المظلمة كالقمقم... تنتابه كوابيس مريعة مفزعة... حين يسمع من الغرف المجاورة المنقوشة بالدم... الصراخ الهستيري... والأنين

* الهولو واليامال : من أغاني البحر .

الخافت المتقطع من الجلسات الكهربائية الصاعقة... وأصوات السياط التي تلهب الأجساد... يلتصق بلهاث الجدار الموحش... ذراعاه معلقتان بالظلام فوق الجمر... ساقاه مخدرتان فوق دود الأرض... يشعر بثقل قاهر... تختنق شفتاه... يختنق صدره وهو يتنفس رائحة العفونة والموت .

يأكله الغضب وكأنه نمر شرس ترك أمام لحظات انتظار مجهولة يئن تحت ألم مثخن بالجراح .

لقد كانت فترة الاعتقال فترة عذاب مبرح... تجمدت فيها روحه وهو يفكر في زوايا بيته الهادىء... يغمض عينيه على وجه (رشا) وأخواتها يرى زوجته الحبيبة (سلمى) التي قاسمته المرة والحلوة ... في ثياب السواد متلفعة بعباءة الحزن... تصلي على سجادتها في دعاء حار لقدومه المنتظر... يهدأ... يصمت... يطيل الصمت... لا يعلم أهو يقظ أم في حالة حلم ؟

لكنه يسمع أعماقه تردد... الحرية... التراب... الموت الأصغر... الموت في سبيل الوطن... الوطن لا يموت... نموت ويحيا الوطن .

النهار يكاد ينتهي... الثالثة عصراً... ظلام في القلب... ظلام في الروح... يؤخذ بجروحه وكدماته مقيداً إلى منزله أمام عيون بناته وزوجته وهن ملتصقات بذعر بعضهن ببعض... يحطنه بدموعهن الحارة الحارقة... يصلي العصر... نظرات بناته الكسيرة مسلطة على آثار الكي الظاهر عليه... وعلى عينيه البارزتين بصورة غير طبيعية... قلوبهن تدق... أعماقهن تردد :

ـ يا إلهي... هل الذي أمامنا هو نفسه ذلك الأب الرؤوف الشجاع الذي كان دائماً يتفجر حيوية وشباباً ويملؤنا بالطموح الكبير .

بألم نازف تسقط دموعهن... عيونهن تتفحص وجهه الحنون الطيب في هذا الجو الموحش المليء بالحزن بعد الحزن... ومن بين تلك الدقائق التي تسابق لحظات الموت... يأتي صوت الضابط كأنه زئير أسد يصرخ بالجنود :

ـ تفتيش... تفتيش...

يقتحم الجنود غرف النوم دون استئذان... يتراكضون في الزوايا... يعثرون على شريط للفيديو عن الاحتلال... ترتجف زوجته... يقف عقلها عن التفكير حين يمسك أحدهم به ملوحاً :

ـ عيني ماذا يحوي الشريط... ؟

تحاول أن تتماسك... ترد :

ـ لا شيء... مجرد صور تخص البنات .

يترك الشريط... عيونه تنقب هنا وهناك... يعثر على رسالة كتبتها (رشا) لصديقتها... فيها شتائم ضد النظام... وضد وحشية أعمالهم... يجن الضابط المتجهم... يتطاير الشرر من عينيه... يصيح صارخاً :

ـ أين رشا ؟ ؟

تقف رشا أمامهم كوردة ذابلة... كحمامة خائفة... ينخطف لونها... ترتجف... تنصهر في تلك اللحظة أوراق ربيعها... يكيلون لها وللجميع الشتائم... واللعنات... والإهانات... عينا مبارك وأذناه إلى حبيبته رشا... لا يستطيع أن يداري نار غضبه... ينزف قلبه... يثور على سوئهم... يهاجمهم... يلعنهم... يسبهم لتدخلهم السافر في شؤون بيته... لكنه يتعرض للركل والرفس... يكاد أن يقع... يرتطم بالجدار... الجنود الأصنام يضربونه بأعقاب البنادق... يرفع يديه الخائرتين لوداع أهل بيته... عيونهم الخائفة تتبعه... راجين اللّه أن يطلق سراحه... وأن يشرق النور في لجج الظلام الحالك .

يقتادونه بالجيب العسكري وسط الرعب والموت وبكاء بناته الطويل المرير .

تصرخ زوجته ملتاعة... صوتها المخنوق يتمزق بحرقة وألم... عيونها الهلعة جاحظة... شفاهها المزرقة متيبسة... تصيح من الأعماق... ترفع صوتها...

راجية... متوسلة... مسترحمة :

- زوجي . زوجي... اتركوه... اتركوه... الله على كل ظالم... الله على كل ظالم .

تتبعه بالبكاء... ودموع البنات... تحشر نفسها بين الجنود... تتمسك بطرف دشداشته... تشدها إليها بقوة... لكن الجنود الذين تفرقوا وانتشروا عند باب المنزل وفي الشارع يدفعونها بخبث ولؤم قائلين :

- القيادة تطلبه... زوجك مطلوب للتحقيق .



توالت الأيام الغادرة في عتمة الظلام الدامس... بطيئة... ثقيلة... مُرّة كالعلقم .

وفي صباح يوم كئيب حزين يطوق مجموعات من الجنود الأوغاد الجمعية... متجمعين حولها أمام الطابور الطويل العريض... مغلقين مداخلها ومخارجها... ومحكمين السيطرة عليها .

يأخذون البطل... كالسبع لا يهاب... في فمه طعم تراب الفداء... وفي رأسه أغنية الموت... يضم بين ضلوعه هموم منطقته... ونكبة الوطن القهر .

يتجولون به وهو معصوب العينين... حافي القدمين... مُقَيّد اليدين... يربطونه إلى عمود النور طليقاً في حضن السماء... كأنه يمتطي العلياء... بين دموع عشيرته المشدودة الأعصاب والأنفاس... ووجوه الجميع الذين أصابهم الهلع والفزع... الجميع يسبح بالفزع .

عيونهم وهم في رحاب الرهبة... مسمرة على طلعة الكبرياء والإباء... على وجه القمر المصلوب على مقصلة عمود النور .

أحزانهم تندلع نزيفاً وأنيناً... الكون أمامهم يصيح... يستغيث... يستنجد بعيون الأمل المقتول... يقفون بين النبض والنبض... بين النزف والنزف... بين

الدم والدم... متصلبين في ساحة شظايا الموت في وجوم جنائزي .

تغص قلوبهم حسرة على عزة العرب وهو يرون التاريخ أمامهم مزيفاً يسقط خجلاً... تخنقهم آهات الظلم على طعن وتمزيق نور الحقيقة .

وكأنهم في تلك الدقائق الحاسمة... دقائق فراق الوداع الأخير... لبسوا من قعر العذاب... رداء صمت الجحيم في كابوس الاحتفال لاغتيال الفارس القمر .

يتقدم الضابط المتجبر الجلاد... بعينيه الدقيقتين كوحش كاسر... ويطلق رصاصة الإعدام على الشهيد المارد المقدام أمام حشود الناس... يأمر الجنود أن يمطروه بسيل من الرصاص .

يهوي القمر المشرق... مبارك النوت*... في عز الضحى النازف... ملقى على تراب صباه... يقطر دمه الزاكي شموساً في عيون الوطن... يسقط بشموخ متألقاً في عرس الموت الأسود... يخر صريعاً من عليائه... مصافحاً وجه الحرية...

يغيب... يغيب في تبر تراب المجد... يولد من جديد... نجمٌ مضيءٌ بارقٌ... لن يموت أبداً .



* اسم البطل الشهيد مدير عام جمعية العارضية والذي استشهد بتاريخ ١٢/٩/ ١٩٩٠م .


أبواب للوظيفة

رغم أن الساعة تقترب من التاسعة صباحاً . . لكن الشمس مازالت مرتفعة ومختفية بين السحب المتلبدة .

الظلام الرمادي الغائم يغمر الأرجاء . . ويرسل رعوداً وبروقاً .

لم يبقَ من الوقت غير ساعة واحدة على الموعد الذي حدده له مدير مكتب الوكيل .

يصفر فرحاً :

- ربما وافقت الوزارة على طلبي . . كل المواصفات تنطبق تماماً على مؤهلاتي . يحس بقلبه رغم الفرح . . يضيق . . يضيق في صدره . . يماطل نفسه . . يتلكأ قبل الخروج . . هل هي لحظات الترقب . . والانتظار . . لاستلام الوظيفة .

أسئلة شتى تدور في ذهنه . . ماذا سيقول للوكيل . . كيف سيستقبله في هذا الموعد المنتظر . . يتمنى أن لا يدخل عليهما أحد من أقربائه أو أصدقائه الكبار الذين يفرضون واسطتهم .

يتذكر كلام والده :

- يا بني في أيامنا هذه . . أصبحت الواسطة والمحسوبية . . عاملاً حيوياً . . فوق القانون . . أيام العهد الجميل . . كان الحق يعطى لأصحابه . . كل شيء كان بالاستحقاق والكفاءة . . اليوم حتى وسام الاستحقاق يعلق على الصدر بالواسطة . . الجوائز تؤخذ بالواسطة وبالروابط الاجتماعية .

المطر في الخارج يزداد غزارة . . يسمع طرقاته الرتيبة .

يتفاءل صائحاً :

ـ يا أمطار الرحمة .

بخطوات مرحة يسرع . . يرتدي دشداشته* . . يضع القحفية** على رأسه . . فوقها الغترة* . . يرتب أطرافها . . يضبط العقال . . ويجهز أوراقه الرسمية .

صوت أمه خلفه وهي تلاحقه . . بعينيها . . بكلماتها . . وصلواتها : ـ اذهب بأمان الله ورعايته . . عسى الله يحفظك وييسر أمرك . . انتبه لنفسك من أجلي . . دير بالك من الطريق ومن السيارات المجنونة .

يحتمي بمظلته الجديدة من حبات المطر . . يتجه إلى سيارته . . يدلف داخلها مسرعاً . . يدير المحرك . . السيارة تتجه به وكأنما بنفسها نحو مبنى الوزارة يدندن بمرح . . بأهزوجة الطفولة والصبا :

طق يا مطر . . طق . . بيتنا جديد . . مرزامنا حديد .



ينتابه قلق . . أمواج الهواء المضغوط تأتي ثائرة . . البرق يشق السماء . . عاصفة المطر تتالى مع أفواج الزخّات . . المرئيات تتماوج حوله . . لم يعد يدرك . . أين هو ؟ . . هل وصل للوزارة ؟ . . هل هو خارجها ؟ . . المطر أمامه . . الغيوم الداكنة خلفه . . علامات البداية . . علامات النهاية .

يصل إلى مكتب السكرتيرة الفخم . . أوراق . . أقلام مختلفة الأطوال . . كباسات . . ملفات . . أظرف . . دوسيهات . . ومراجعون .

ـ صبّحك الله بالخير .

ـ أهلاً . . صباح النور .

---

* الدشداشة : زي وطني يرتديه الرجل .

** القحفية – الغترة – العقال : ما يضعه الرجال فوق رؤوسهم .

ـ اتصلتوا فيني بخصوص طلب العمل الذي قدمته منذ ثلاثة أشهر .

ـ يرن الهاتف . . تشير إليه بالجلوس على أحد الكراسي .

تهمس للطرف الآخر :

ـ لحظة من فضلك . .

صوت السكرتيرة يتودد :

– تفضل استرح . . تشرب شاي!

– شكراً

الدقائق تمر ثقيلة متوترة . . يفكر في مصيره . . الوقت يتعثر أمامه . ويختلط مع زخم المكالمات الهاتفية التي يتلقاها المكتب .

السكرتيرة بارتباك تجهز أوراقاً رسمية ربما لاجتماع لاحق . . ترد على أحد الهواتف :

ـ حاضر كل شيء تمام .

يرن الهاتف الثاني .

ترد بتأفف :

– مشغول . . مشغول عنده اجتماع . . زين ما يصير خاطرك إلاّ طيب .

أحدهم يلح على مقابلة الوكيل . . ترد عليه :

– أعندك موعد سابق معه ؟ ؟!

يجيب :

– لا . ثم يسرح نظره في وجهها الناعم الماثل أمامه .

تستدير في جلستها لجهة ثانية . . تحس أن كل واحد من المراجعين ينظر للآخر . . وكأنه يراقبها .

لا يزال منتظراً . . الأفكار تتضارب برأسه . . يسرح شارداً . . يقطع

شروده أحد العاملين المنتظرين مثله . . يسلم عليه . . يعرفه بنفسه وبأنه منذ زمن يتردد على ديوانية والده . . يقترب أكثر . . يتنهد . . يهمس شاكياً :

ـ تخيل يا بني ، إن الوكيل طلبني قبل يومين . . ليبلغني بإنهاء خدماتي .

ـ لماذا يا عم ؟

بحزن وأسى يقول : إن الوكيل استدعاني . . فقط ليقول لي :

ـ إن الوزارة في حاجة إلى يد عاملة فنية وقوية . . يد فتية شابة .

ـ لكنني قبل أن ينهي كلامه قاطعته :

ـ أفهم من هذا أنك تريد الاستغناء عني .

بغرور رد عليّ :

ـ أجل هذا ما أردت أن أخبرك به .

حينها طأطأت رأسي متأثراً بالخبر . . فأنا يا بني رب أسرة . . أعول ستة أولاد صبية .

يأخذ نفساً متقطعاً . . . ويضيف بكلمات . . . متعثرة ومتقطعة :

أنا أدري حقيقة سبب إنهاء خدماتي .

يسأله مستفسراً : وما الحقيقة!

يغمغم في شرود :

لأني لم أعد أستطيع أن أنجز خدماته الخاصة .

يواسيه قائلاً :

ليعوضك الله بكرمه . . ثم يردف :

والآن هل جئت لتطلب أن يعيدك لعملك .

يرد وإحساس بالغبن يلازمه :

لا يا بني . . لا . . لقد وصل بهم نكران الجميل إلى نسيان سنوات

عمري التي قضيتها في خدمتهم . . ثلاثون سنة كاملة . . يضيف دامعاً :
عملت بكل إخلاص ووفاء . . فرّاش . . مراسل . . مندوب . . حتى الأعمال الخاصة كنت أنجزها .

بتمتمات خافتة . . يواصل وهو يبوح بكل ما يجول بخاطره من هموم وأحزان وكأنه يحدث نفسه :

ـ كان يطلب مني أن أعمل حتى في البيت .

بصدق يواسيه ثانية . . بكلمات هادئة . . رغم أنه شعر بإرهاق وهو يستمع لشكواه . . وبهدوء يقول له :

ـ هدي نفسك يا عم . . صفي فكرك لتعرف ماذا ستفعل ؟

يرد وهو يطلق الحسرات :

ـ الآن أسعى للحصول على خدماتي .

ثم يصمت . . تدور به رحى الصمت . . يحس كأن الدنيا أغلقت أبوابها أمامه . . فجأة يدب به النشاط . . يتحرك . . وكأنه أدرك أن التحسر لا ينفع . . حينما تحكم الظروف القاسية بما تحكم . . بدون قاضٍ ولا محكمة .

يقترب من الشاب وهو يهمس في أذنه :

ـ يا بني اطلب من والدك أن يجد لي عملاً .

ـ يبتسم وهو يودعه :

حاضر يا عم . . بإذن الله أبواب الرزق مفتوحة .



لم يتمالك نفسه . . شعور بالانقباض يستولي عليه . . يعتصر ذاكرته . . يغمغم بأسى . . خدمات خاصة! كلمات بقيت ترن في أذنه . . هل من المعقول أن تغلق الأبواب أمام الكفاءات المؤهلة . . وتفتح

للمحسوبيات . . ولمن يؤدي تنازلات وخدمات خاصة . . لا . . لا أعتقد . .

لقد حضرت مؤتمرات . . محاضرات . . سمعت مقابلات . . كل المسؤولين يتحدثون فيها عن الاهتمام بالقوى البشرية . . عن التطوير والتحديث . .

لا أصدق أن الخدمات الخاصة وضعت بدل الارتقاء بالعمل . . كلا . . كلا . .!

إن وجد مثل هذا المبدأ فهو في بعض الشخصيات التي لا تهمها مصلحة بلدها العامة .

صوت السكرتيرة ينبهه :

ـ موعدك . . تفضل .

ينظر إلى ساعته . . الثانية عشرة والنصف ظهراً . .

هو الآن لا يعي الوقت . . لعل ما كان يجذبه في البداية هو الذي ينفره في النهاية . . حقاً يحاول أن يفهم بدايات الأسس . . بدايات العقبات .

يطرق الباب بأصابعه . . يعلن الاستئذان . . يدخل غرفة الوكيل الأنيقة . . يتعرف على المكان . . يتفحص بعينين صافيتين المحتويات . . ينظر في كل ناحية . . المكتب المستطيل اللامع . . أوراق تتكدس عليه بعضها فوق بعض . . أقلام حبر ملونة . . أقلام ناشفة . . نظارات طبية . . وثلاثة هواتف ملونة . . أسود . . رمادي . . أحمر .

الوكيل غارق على الكرسي الوثير الهزاز . . يرد على الهاتف حيناً . . ويحدث الذي أمامه أحياناً أخرى .

في استحياء هادىء يلقي التحية . . يأخذ جانباً من المكان الواسع ويجلس .

أمام دوامة حركة المكتب . . ينسى موضوعه . . ينسى الوظيفة المستقرة التي جاء من أجلها .

منذ ثلاثة أشهر وهو ينتظر هذا الموعد . . لقد كتب العديد من الطلبات من أجل العمل . . أرفق الشهادات . . والمستندات . . ثم لا رد .

هناك أيضاً غيره الكثير من الشباب الذين أفنوا صباهم وشبابهم في الدراسة والتحصيل . . وأصبحوا مؤهلين . . قادرين على العمل والعطاء . . من أجل حصد ثمار جهودهم كي يسهموا في نهضة البلاد .

لكنهم للأسف يجدون أمامهم أبداً معوقات وعراقيل .

يهز رأسه وهو يحدث نفسه :

- الظاهر أن الحصول على عمل جيد . . ومكسب جيد لم يكن ليرتبط بالشهادة أو المعرفة . . وما يدخل الجيب لم يكن بالضرورة عن طريق قيمة العقل . . إنما قد يرتبط بظروف أخرى معقدة ليس لها طريق واحد . . أو باب واحد .

مضى على دخوله لمكتب الوكيل أكثر من ربع ساعة . . لم يكلمه بشيء . . بل كان مشغولاً بمكالماته . مرة يتحدث بشيء من الجلجلة التي يخالطها الغضب ويغلق الهاتف .

محادثة أخرى تجعله شخصاً آخر . . يتحدث بصوت يكاد يكون هامساً . . يقول كلاماً يكاد يقرأه في تعبيرات وجهه المنشرحة . . بينما يرسل إليه النظرات المتفحصة . . المتسائلة . . من فوق كرسيه الوثير .

كم يكره هذا الكرسي الكبير الذي يصل إليه أحياناً من لا يستحقه . . وأحياناً يجلس عليه من يتردد في آرائه ويتراجع . . فتصبح كل عباراته وحركاته مصطنعة .

بغصة يحدث نفسه :

هأنذا أمام عقدة الكرسي . . أرى بعيني صاحبه وهو يبدي احتقاراً للناس البسطاء . . حتما هو يدرك في سره أنهم أقوى منه . . ها هو يخاف

من نظراتهم العفوية الصادقة . . لأنهم يعرفون مدى ضحالة أعماقه ومدى الفرق المضحك بينه وبين الكرسي الذي يجلس عليه .

يرن الهاتف . . يرد الوكيل بصوت مهزوز تفوح منه رائحة المجاملة .

- حاضر طال عمرك . . أنت تأمر . . ليس هناك من هو أكفأ منه .

يصدمه الكلام . . يدرك أنه يرد على المتكلم . . برد فعل مباشر . يضع السماعة . . يصوب بصره عليه وكأنه يطرده . . يلتفت إليه بعد هذا الوقت الطويل من الانتظار ويقول :

- تخصصك إدارة أعمال . . لا يناسبنا . . قدم طلبك لوزارة أخرى . . ثم يواصل سأ . . سأوصي عليك . . يصمت . . يسكت .

يفهم من سكوته أنها دعوة قاسية للانصراف .

يحس أن كلماته سكين انغرست في صدره . . ينظر إليه بعينين موقوتتين . . أوشكتا على الانفجار . . . لكنه يجد نفسه عاجزاً تماماً . . لا يعرف ما الذي يمكن أن يقوله المرء عندما يكون في مثل هذا الموقف .

يأخذ طريقه للباب . . ويخرج حزيناً .

أحدهم يطبطب على ظهره قائلاً :

- لا تحزن ؛ مثل هذا يحدث كل يوم ؟!

في الممر الطويل . . تطوف على وجهه غمامة غيظ . تضيق الدنيا به . . يحس بصغر هذا الوكيل . . وأن الكرسي الذي يجلس عليه أكبر منه .

- يتمتم وهو ينظر للسماء : هذا الكرسي الوثير لن يدوم لك .

يخفض نظره للأرض و بقلبه يردد :

إن المناصب لا تدوم لواحد   إن كنت تنكر ذا فأين الأول

❖ ❖ ❖

في الخارج فاجأته العاصفة الماطرة التي حولت الشوارع إلى بحيرات

ومستنقعات . . المطر غزير . . سريع . . انفرشت حباته في صلابة وارتطام قاسٍ على كل الأشياء .

يجبر نفسه رغم كل ما ينتابه من ضيق . . وصعوبة في السير على التحرك السريع . . يحبس أنفاسه . . يُثبتْ نظراته على مرآة السيارة ويراقب الطريق . . يلملم نفسه وأعضاءه رغماً عنه . . يتصبر . . يتماسك . . يقسر نفسه على الوصول للبيت تحت هذا المطر الكبير العاصف .

يا أمطار الغضب . .

المياه تتدفق تحت الجسر . . عند التقاطع المؤدي لبيته . . كأنها سيول . . تغطي الأرض وترتفع فوق الأرصفة . . الأولاد يدفعون سيارة غرقت . . آخرون يمشون بالقوارب في بحيرات الماء . . الرجال ينقذون الأطفال والنساء من الغرق . . السيارات الأنيقة الفارهة تغرق . . يقهرها المطر . . يلمع سطحها . . الأشجار تسقط . . والكتل الخشبية تغرق . . تغرق .

يا إلهي هل الغرق نذير شؤم . . ؟ هل كان إشارة للطريق المسدود . . ؟ حينها تذكر كيف انقبض في الصباح . . كيف تلكأ طويلاً قبل الخروج من المنزل وهو يماطل نفسه . . في هذا اليوم الشتائي الغائم . . رغم موعد الحلم المنتظر . . وتجربة العمل المثيرة التي كان يعتقد أنها تنتظره في الغد .

يستدرج رجوعاً إلى البيت دون أن ينظر خلفه . . لكن سيارته تعطلت في أول الشارع . . الماء يغطي نصفها . . يختلط مع البنزين . . يتركها مرتجفاً من البرد الشديد . . . مشياً على الأقدام . . وسط بركة كبيرة من الماء . . ثيابه كاملة تتبلل . . يحس بالبرد القارص يتغلغل إلى أعماق جسمه .

المطر يتوقف . . لكن السيول تبقى متدفقة مندفعة .

إلى عتبة بيته يركض ، يركض مع الكثيرين الذين ركضوا . . الريح

الثلجية تشق شعاعها مثل السكين داخل العظام .

يسرع داخل بيته . . يأخذ دشاً حاراً . . يغير ثيابه . . يستريح ، من النافذة يلقي نظرة على الشارع . . الغيوم السوداء تترنح على صفحة السماء . . تتفتح ألوانها قليلاً . . ترسم أشكالاً مختلفة للوحات رائعة .

يتنبه على صوت أمه متلهفاً متهللاً تضمه إلى صدرها غير مصدقة . . وهي تكاد تطير فرحاً . . تسمي عليه وهي تردد :

-ألف الحمدلله والشكر لله . . سأصلي . . على سلامة عودتك . . الحمد لله على السلامة يا وليدي . . طول النهار كنت قلقة عليك . . ما صدقت ترد لي سالماً . . اليوم يكتب بالتاريخ هدامة* ثالثة .

تدخل غرفتها . . تعود . . تمد يدها إليه . . تسلمه ظرفاً خاصاً أصفر . . ينزوي بعيداً . . يفتحه .

مبروك قبل طلبك في القطاع الخاص . . شركة الاستثمارات الوطنية . . ترحب بك . . تفضل استلم الوظيفة .

فجأة تتغير ملامحه . . لم يستطع في تلك اللحظة . . أن يخفي إشراقة كبيرة ظهرت على وجهه . . أزاحت عنه الإرهاق . . والإحباط الحزين . . يحس بشقة الدنيا داخل كيانه . . يضحك . . يدور حول نفسه فرحاً . . يركض . . يزف البشرى لأمه .

بفرحة كبرى تسمي وهي تقرأ :

قل أعوذ برب الفلق . . من شر ما خلق . . ومن شر غاسق إذا وقب . . . . .

---

*الهدامة الأولى : في ٧ ديسمبر ١٩٢٤ م مطر غزير عظيم انهمر على الكويت وهدم المنازل ، الهدامة الثانية : عام ١٩٥٤ م انتقل بعض الناس إلى السكن في المدارس بعد هدم منازلهم . في ١١ نوفمبر ١٩٩٧ م ايضاً نزل مطر غزير غرقت من خلاله الشوارع والسيارات .

الزواج . . . ولكن

كانوا ينبشون المستقبل من أحشاء الرمل والودع . . . ومن أفواه الأهل والصديقات المقربات . . ليروا متى يتقدم لها فارس الحصان الأبيض المُسرَج بالنجوم . . . فارس الفرح . . . في زمن الإشراق الذي تحب .

متى . . . وكيف . . . . يدخل ربيع الحب قلب فتاتهم الحالمة بعناق البحر والحصى والموج . . . وكلمة حبر الروائع .

بينها وبين الزواج عالم غامض . . . يدور . . . يصعد بها في هواء الافتراضات الملونة التي سرعان ما تطير كالفقاعة . . . وتسقطها في فضاء الحالمات المنهزمات .

أمها قالت لها يوماً بحنان :

– الزواج يا بنتي حلم كل فتاة . . أنت الآن كبيرة وتعرفين مصلحتك .

– لا أفكر في الزواج الآن . . لي أحلام يا أمي . . أحلامي جميلة في عالم خاص . . . أتمنى أن لا يقتحمه أحد . . وحدتي هي أمنيتي في هذا الكون الفسيح . . وحدتي في الليل فقط . . لكنني متعددة في النهار . . في العمل ناجحة . . الكل يحيط بي . . الكل يحبني .

– كل البنات يا بنتي في مثل سنك يفكرن بالزواج لا في العمل فقط . . الزواج ستر . . وهو نصف الدين . . شرعه الله سبحانه وتعالى كي تستمر

الحياة . . ويتواصل بقاء البشر .

– آه يا أمي . . الكل يتلهف من أجل الزواج الذي أراه فخاً منصوباً للرجال والنساء . . أنا الآن مرتاحة . . طليقة . . عاملة . . . منتجة . . . أحلم . . . أحلم . . وأنا يا أمي لا أملك غير الأحلام . . ثم إن الكثير من البنات لم يتزوجن ولا ينقصهن شيء ويبقين محترمات في المجتمع .

– اتركي عنك هذه الأفكار . . . لكل إنسان ظروفه . . وظرفنا أن نراك كبرت . . . وصرت امرأة . . وذهابك لبيت زوجك هو يوم المنى . . يوم يسقط عن كاهلنا حملك وتنتقلين لكاهل زوجك .

تستدير لأمها موضحة : كاهل زوجي . . . آه لو تعلمين يا أمي إن الزواج عند البعض واجهة اجتماعية فقط . . ثم من قال لك أني أصلح للحب والزواج . . ؟ أمي أرجوك اتركيني . . ألا يكفي ملايين النساء اللاتي يتزوجن وينجبن كل يوم . ؟

– أنت يا حبيبتي واحدة منهن . . ينبغي أن يكون لك زوج تحتمين به .

أنت واحدة منهن . .

جملة ركضت في متاهات الفضاء . . بأجنحتها الفضية . . استقرت في رأسها المشحون بالأفكار الهلامية . . والتصقت بأهدابها التي تتراكم عليها أحلام النجوم .



ها هي ذات صباح دافئ تلتقي به بعد غياب . . يأسرها حضوره . . تبهتْ حين تسمعه يتكلم . . لماذا ؟ . . هل لأن شخصيته تجمع العديد من

المتناقضات . . منتهى الرقة والضعف . . منتهى القسوة والتحدي . . إلى جانب المنطق والعقل المتزن . . لماذا تحب أن تسمعه وهو يتكلم . . وقد تتحرق شوقاً إلى شيء فيه لا تدريه . . هل هو منطقه العنيد . . ؟ هل هي ثقافته . . وملامحه المتكبرة والزاهدة في آن واحد . . ؟ هل هما عيناه الحمراوان تدوران على محتويات نفسه من الداخل والخارج ؟

هل هو حضوره المثير . . ؟ لعله يدرك ذلك رغم تظاهرها بأنه لا يثيرها شيء . فجأة يقترب منها ونظرة عينيه تحيطها :

– أخبارك . . ماذا بك ؟ . . كيف أنت ؟

– يا إلهي . . أين أنت . . بعد كل هذا الزمن ؟

– كيف حالك ؟ . . . لماذا الغياب . . هل مازالت أفكارك هي هي لم تتغير . . ؟

– بدت شاردة بعيدة . . سرحت وهي ترد : أحلام . . وأفكار تنتابني . . . استرسلت قائلة : ما يسعد النساء لا يسعدني . . . ما يلهث الرجال من أجله لا يحركني . . ما يرضي البشر لا يرضيني .

قال في نبرة تحبها :

– قلق العصر الذي يصيبنا . . لكنها أخبار لا تستدعي أن تبعدك عني . . ولا تليق أن تفصل المسافة بيننا . . وحيد أنا إلاّ من صحبة خاطر يهمس لك . . يريد معرفة رأيك منذ أول مرة رأيتك فيها وطلبت منك الاتفاق والانتماء لبعضنا .

– رغم ود الحنين المتبادل بيننا . . علينا أن لا نتعجل . . أن نتريث قليلاً ، القرار ليس سهلاً .

تحدث نفسها بابتسامتها الوادعة :

– يقال : إن الزواج يقلب الحياة رأساً على عقب .

يرد عليها بحب :

– ليس معك . . أنت نجمة . . انتظرتها بين النجوم المتمردة في السماء . . أعجبتني منذ أول لقاء . . وبقيت أتوق إليها حتى آخر المواعيد .

تطرق أرضاً :

– أنت من أعجبت بكلامك ومنطقك . . ولكن . . أحقاً . . كما سمعت عنك ؟

قال في شبه تعجب!

– مالك أنت وما عرفه الناس عني . . أريدك أن تعرفي مالا يعرفه الناس عني .

– يقولون : إنك رجل صعب . . غريب الأطوار . . وإنك . . . يهمس لعينها الثاقبتين :

– إني أمنحك شرف الاكتشاف . . وأنتظر مكالمتك الليلة لتخبريني هل سنبحر معاً إلى أفقنا المستحيل . . أم أشد الرحال وحدي . ؟

❖ ❖ ❖

لا أدري بالتحديد ما حدث . . أفقت من غفوة جميلة . . وجدت نفسي بين يديه في ذلك الفندق الفخم . . في ليلة عمر أسطورية . . ليلة فرح فاتنة . . ليلة حب . . تمايل فيها الكون مع أنوار الشمعدان . . سمعت من خلالها أحلى الكلام . . شربنا نخب الحب والحنين . . زرع في عروق قلبي الحلم الجميل . . دخلنا رضاب الليل . . تسابقنا حتى آخر شواطئ العشق . . منحني الأمان . . أعطى قلبي وشفتيّ كل ما يعطيه لنا البحر من احتياج . . أخذتني يداه بعيداً إلى كوكب منعزل في عالم بعيد جداً . . أحببته أكثر من

اللازم . . أكثر من إيماني بالحب . . لعبنا كثيراً . . ضحكنا كثيراً كطفلين . . وامتلكنا معاً كل الفرح . . والعطاء . . والشقاء . . . في ليلة غريبة جمعت بين الفرح والحزن . . حاول أن يخفي دموع الفرح عني . . لكن أبت عيناه إلاّ أن تتحدث بصمت . . وأنا كامرأة بكيت كثيراً . . وبكاء المرأة في مثل هذه المواقف طبيعي جداً . . لكن بكاءه كان له طعم الألم .

لأول مرة أرى رجلاً يبكي أمامي . . بيدي الحانية مسحت دموعه وباليد الأخرى مسحت دموعي . . وأنا ألمس مدى صدقه . . وإصراره على التمسك بي . . عاهدني أن يظل لي الزوج الوفي الذي لن يتغير مهما تلونت الظروف .

ها هي ثلاث سنوات قضيناها معاً كأسعد زوجين . . سنوات هادئة جميلة . . رزقت منه طفلة حلوة سميتها وفاء . . ولم أكن واهمة حين لمست إخلاصه ووفاءه لي في أحاديثه وعهوده وتصرفاته معي . . بل لعل إخلاصي ووفائي وحبي له كان مجرد صدى لما يملكه هو من حب دافق ووفاء مخلص . . وقلب يتفجر حناناً وحباً . . كنا نتصهر سوياً نحلم بالسعادة الأبدية . . ننسى هذا العالم من حولنا . . ننام ونفيق على أصوات الكناري . . وزقزقة العصافير . . فتفيق معنا كل الآمال وكل الطموحات والأمنيات .

ثلاث سنوات وهو الزوج المثالي . . الذي وثقت به . . وآمنت به . . ولم أشك قط بصدقه . . ظللت أحدث كل الناس عن قيمه ومثاليته الخيالية . . إلى أن بدأ الغياب يتكاثف على بيتنا السعيد . . . فأخذ يبوح بالذي يضنيه . أبوح وأبكي الوفاء داخله . . أبكي وعوده التي ماتت . . . أرثي دموع عينيه في ليلتنا الأولى . . . الليلة الأسطورية الغريبة . . وأرثي دموعي الصادقة التي تجاوبت مع حكاية الحب والوفاء المزعوم .

يا إلهي كيف يضيع الزمن بحوادثه وأيامه ولياليه . . ؟! كيف يفقد العقل ذاكرته ووعيه . . ؟! كيف تتلاشى ثلاث سنوات كاملة من عمري . . ومن حنين حياتي أمام لحظة قصيرة صاعقة . ؟!

زوجي العزيز لماذا تعجز شفتاك الآن عن الرد والتعبير . . ؟ لا أعتقد أنك خجل من فعلتك . . ها أنت تنزعج من صراحتي . . . ومواجهتي . . . هل تريد أن أسكت على مغامراتك من أجل الزواج والمحافظة على البيت المنخور .

يصرخ فيها والشرر الأحمر يتطاير من عينيه :

– إني أوفر لك كل شيء . . بيتك كامل . . ماذا ينقصك ؟

صرخت والحرقة تنضح فيها :

– للمرأة كرامة . . للمرأة احترام ورأي . . وعلى الزوج أن يقدس حرمة البيت . . للمرأة اليوم مكانة وكفاءة وقدرة . . كفى حلماً بالماضي . ذل . . وانتهاك لشخصيتها المسيرة والمجردة . . هي لم تكن تملك شيئاً . . حتى حريتها لا تملكها . . كل شيء بيد الرجال . . القانون معكم . . والناس تقف إلى صفكم . . وأنتم بسيوفكم تسلطون عليها الظلم والقهر . . تغير الأمر . . اليوم المرأة لها دور اجتماعي . . تتحمل المسؤوليات بجدارتها . . تعتمد على ذاتها . . تحترم وجودها وتفرض احترامها على الجميع .



صبرت عليه . . تحملت الكثير من التفاهات من أجل ابنتها وفاء والمحافظة على بيتها . . لكن الوفاء ضاع كفقاعات الصابون التي يلهو بها الصغار .

الفقاعات تتلألأ للحظات . . يركض خلفها الأطفال فرحين . . لكنها تتفقع وتتلاشي . . ولا شيء يبقى سوى الفراغ .

رباه لماذا هذا الشقاء . . ؟! العمر يعيشه الإنسان مرة واحدة وليس مرتين . . لقد تحول الحب عندها إلى اللاحب . . رغم أنها تعيش معه تحت سقف واحد . . تنام معه . . تأكل معه . . ولكن ترسب في أعماقها كره عميق لتلك اللحظة الرهيبة .

حين دفعت صغيرتها باب الغرفة . . وتدحرجت إلى أبيها . . كان يحتضن السماعة بحنو ومحبة ويهمس للطرف الآخر بأحلى الكلام . . تسمرت . . انهارت . . وهي تسمع نفس الكلمات التي كان يهمسها ويرددها على مسامعها . . أسرعت أخذت صغيرتها وهرولت .

بعد فترة اجتازت الصالة إلى غرفة النوم . . وجدته نائماً . . عطر جديد يفوح في أرجاء الغرفة . . عبثت في جيوب دشداشته . . سلسلة مفاتيح . . نوتة هاتف . . وصولات صغيرة . . ومحفظة نقود .

حدقت في المفاتيح . . بينهم مفتاح غريب عليه نقطة صبغ حمراء . . وفي النوتة رقم بلا اسم ولا عنوان . . مـــاذا يعني هذا الرقم . . ؟ ومن بيته . . ؟ لماذا بدون اسم . . ؟ ماذا يعني هذا المفتاح المميز ذو النقطة الحمراء والذي يتدلى من سلسلة المفاتيح فاتحاً فمه وكأنه يضحك عليها .

آه تود لو تنشق الأرض وتبلعها . . لماذا . . ؟ لماذا . . ؟ ما الذي دفعه لهذا . . ؟ هل قصرت في حقه . . ؟ أسئلة جلدت نفسها بها حتى جاء مساء اليوم التالي . . رفعت السماعة . . ودقت نفس الأرقام التي بلا اسم وعنوان . . رن الهاتف ثلاث رنات . . رد صوت تعرفه تماماً . . صوت زوجها الوفي الحبيب من البيت الآخر . . تحيطه ضحكة كبيرة . . . وموسيقى هادئة . .

منذ تلك الحادثة قررت أن تكون سيدة مشاعرها . . مدركة أن الرجل الذي يدخل حياة المرأة . . عليه أن يوفر لها لحظات البهجة لا لحظات الشقاء .

استمر غيابه المتتالي وكأنه يصر على إهانتها وكسر كبريائها . . ومع ذلك بقيت متماسكة . . رغم خوفها من اليوم والغد ومن شيء قادم لا تعرف ما نهايته .

كل ليلة يعود متأخراً مخموراً . . لا يعي الوقت . . تسبقه رائحة الخمر . . يترنح وهو يجرجر رجليه . . يهوي على الأرض . . . تساعده على النهوض . . يكلمها بعينين زائغتين مخمورتين . . يهذي بكلام متكرر ممل سمج . . ثم يدخل في بكاء طويل . . يجعله طفلاً منكسراً يستجدي الحب والحنان . . ويسأل . . يسأل أسئلة خاثرة عن الحب . . الزواج . . عن ابنته وفاء .

هو لا يسأل هذه الأسئلة إلاّ حين يكون مخموراً . . فاقد الشعور والاتزان . . لحظتها يحلق . . يتجلى . . تتدفق منه الكلمات مرة فارغة . . ومرة عميقة تتعلق بحب ليس كما تريد . . حب مخمور يكتم الأنفاس .

تضع رأسها بين يديها . . تكلم نفسها :

– الحب يا زوجي العزيز ليس بالغياب . . والذهاب إلى الأخريات .



تعودت على غيابه وإدمانه . . سهره . . . وشربه . . وحججه الواهية التي لا يردها ضمير ولا لوم .

تثور مرة . . تصبر أخرى . . وهي تتحمل عيوبه . . وتغفر زلاته . .

لكنه تمادى كثيراً . . حتى جاءت لحظة الزمن الحاسمة . . لحظة قوية صعبة سقطت على رأسها كالقذيفة . . حين عادت ذات مساء من بيت أهلها بصورة مفاجئة دون أن يعلم بحضورها . . وجدته معها في الداخل على حرمة فراشها وفي غرفة نومها . . تحيطه ضحكة كبيرة . . . وموسيقى هادئة .

لم تتمالك نفسها . . كادت أن تسقط من طولها . . اتسعت عيناها مندهشة . . هل هي واهمة ؟ . . تشنجت . . تسمرت في مكانها من هول المفاجأة العارية . . . النار تشتعل بداخلها . . وكل أعضاء جسدها ترتجف .

تلفتت مشدوهة يمنة يسرة صرخت به :

– ما هذا . . ما أرى . . ألم تكتفِ وأنت تمارس الخيانة الزوجية معها هناك بعد أن تقفل الباب خلفك بهذا المفتاح ذي النقطة الحمراء ؟

كيف تتجرأ وتنتهك الحقوق الزوجية في بيتي وعلى سريري . . وفي نفس الفراش الذي يجمعنا . . ؟!

مسرعاً يحاول أن يلملم أنفاسه . . يتمتم بذل ليرمم ما انكسر . . يتوسل لها أن تخفض صوتها . . العيب . . الناس . . الجيران . . . يطلب السماح والغفران . . لكن صراخها المرتجف جعله يهرب . . يترك البيت راكضاً هارباً . . مرتعشاً من الفضيحة . . متعثراً مع فريسته . . مذعوراً من فعل جريمته . تتهالك على السرير . . تسقط عليه . . فتحس أن كل آمالها وصخورها القوية سقطت رمالاً ساخنة .

بعصبية تضم ابنتها الوحيدة إلى صدرها . . تحدث نفسها في حدة ويأس :

– هل أبلع قسوة فعلته الشنيعة هذه ؟ . هل أتحمل إهانته بعد أن سحق كرامتي . ؟

لكنها أحست في تلك اللحظة المؤلمة أن كل شيء قد انتهى . . مات ما

تبقى عندها من بقايا حب .

عاد إليها ثانية . . لابساً ثوب الندم . . طالباً السماح . يقسم بأنها زلة عابرة لن تتكرر . . سيجدد الوفاء . . سيجدد حبه وعهده لها .

يأتيه صوتها بنبرة الاحتجاج :

– أرجوك . . لا تكرر الطلب ثانية . . ابق بعيداً . . وفي المكان الذي فضلته عليَّ وعلى ابنتك . . لا تجدي كلمات حب لا أمل لها إلاّ خيبة الأمل ، اطلق سراحي فكلانا لم يعد يصلح للآخر ، طلقني واذهب إلى المرأة الأخرى التي تنتظرك هناك . . الزم مكانك أيها الوفي . . لأنك قطعت بيدك آخر الخيوط

يصمت . . يذهل . . لا يستطيع أن يواجه حقيقة خطاياه

لكنه أمام غضبها وانفعالها . . لا يملك إلا أن يخرج ويصفق الباب وراءه

مضى على طلاقها من زوجها عامان ذاقت فيهما مرارة المعاناة . . . كلام الناس . . . الجيران تهمس في غدوها ورواحها . . أجل هي امرأة مطلقة . . وما أدراك ما نظرة المجتمع للمطلقة . . مهما كانت الأسباب ، فالمجتمع ينظر لها إنسانة فاشلة لم تستطع المحافظة على بيتها . . العيون تتبعها في كل تصرفاتها الصغيرة والكبيرة . . ترمي عليها بالشبهات . . هي تدرك ذلك وتتألم . . في ليل الوحدة تبكي . . تبكي . . تخفي معاناتها النفسية تحت وسادتها الباردة عندما تسدل الستائر وتخفت الأصوات وتهجع للنوم .

وذات يوم صاف . . جاءتها أمها تهمس ثانية :

– تزوجي يا ابنتي . . لا أحد سينفعك . . إخوتك كل منهم تزوج وذهب لبيته مع زوجته وأولاده . . والدك مسن وأصبح قاب قوسين أو أدنى

من النهاية . . وأنت وحيدة في هذا البيت الكبير .

تنفخ . . تصيح متأففة :

- أمي أرجوك افهميني . . قلت لك بيني وبين الزواج عالم غامض . . هل أكرر التجربة ثانية . . ابنتي وفاء هي عندي الدنيا . . وهي كل ما أملك . . لا أريد أن أعرضها لمشاكل زوج الأم . . ،

تجيبها أمها بجد :

- الأولاد عادة يكرهون زوجة الأب لأنها تريد أن تصبح بديلة لأمهم . . فيحملون لها مشاعر مضادة . . لكن زوج الأم يا بنتي حالة أهون* .

بحب تطوق وفاء بذراعيها وهي ترد على أمها :

- أخاف عليها من هذه المشاكل التي ليس لها يد فيها .

- يا بنتي الوضع هالمرة يختلف . . الذي يتقدم لك الآن يريد رضانا ورضاك . . يوافق على كل الشروط . . حتى التكفل بتربية ابنتك . . هو مثلك له تجربة فاشلة عانى منها الكثير . . ويريد أن يرتاح . . في بيت هادىء ؟ يجمعه مع زوجة محبة تصونه .

ورغم ترددها في فكرة الزواج الثاني إلاّ أنها أمام إلحاح الأم والأب والإخوان أحنت رأسها قائلة :

- نعم أنا موافقة



انتقلت مع المعرس الجديد إلى فيلا أنيقة مع طفلتها وفاء . . محاولة نسيان الماضي . . شغلت نفسها في تأثيث وأناقة الفيلا . . سجاد أصيل . . ستائر هفهافة . . كراسي ستيل . . مزهريات . . ثريات . . أنتيك قديم . .

تحف ثمينة . . لوحات . . لوحات زيتية . . علقت صورة ابنتها المكبرة أمامها في صالة الجلوس . . لكنها لاحظت جلوسه الدائم على الأريكة المواجهة لهذه الصورة . . يتأملها . . يحدق بها دائماً . . وكلما يرفع عينيه . . يرى وجه الطفلة يبتسم له . . ويتخيلها تمد لسانها فيعتقد أنها تسخر منه ومن سذاجته . .

تقول له في تهكم :

– ركز وجهك عليَّ . . حس بوجودي . . أنا وفاء ابنتها . . فرحتها . . ابتسامتها . . روحها . . قطعة منها . . أنا أنفاسها التي تعيش بها . . نْموتُ وترعرعت في حضنها الدافيء . . تحبني أكثر . . بل أنا حبها الأكبر .

يغار . . تأكله نار الغيرة . . يحس أن الطفلة تنافسه خاصة عندما يراها تهتم بها أكثر . . تخاف عليها من النسيم . . تدللها . . تدلعها . . تقبلها . . تحضنها حتى تنام مرشوشة بالحزاوي* والحكايات . . والدعوات الصالحات . يحاول أن يستفزها :

– وأنا ألا أستحق منك هذا الاهتمام ؟

ترد هامسه :

– أنا كلي لك .

دائماً ترد عليه بصدق عفوي . . يحب صدقها . . يحب جرأتها وصراحتها . . وإذا ما تذكر منافسة الصغيرة له . . يقفز . . يحاول أن يرفع صورتها . . لكنه يتردد . . يضغط على الكرسي الجالس عليه ويبقى في مكانه ينفث دخان سيجارته . . لا يدري لماذا تفارقه شجاعته التي اشتهر بها . . لماذا هو جبان الآن أمام زوجته البسيطة هذه . . هل لأن عينيها تختلفان عن عيون بقية النساء . . ربما فيها أشياء لا يستطيع مواجهتها . .

أشياء تجعله يتردد ويخاف هذه النظرة القوية الثابتة يضع يده على رأسه . . يضغط عليه . . تنقبض ملامحه . . تجحظ عيناه . . حين يتذكر زوجها الأول الذي اختارته هي وبادلته الحب . . يشعر فيها بأن ناراً مستعرة تشتعل بأعماقه . . ماذا جنى من دنياه حتى يتزوج امرأة عرفت مع غيره حباً مشتعلاً . . يوسوس . . كيف كان الحب بينهما . . لا شك كان قوياً ثائراً . . ماذا فعلا خلال الثلاث سنوات . . قبلات . . حب صارخ . . حتماً كانت له جسداً وروحاً .

يتعوذ من إبليس . . يأخذ نفساً من الراحة . . بعد لحظات . . تهدأ ثورة الغضب في داخله . يفتح غرفة النوم . . يجلس قربها . . يجدها لطيفة وديعة . . وجهها هادئ بريء . . مستلقية في فراشها في قميص نومها الأبيض كالملاك . . متكورة على جسدها . . يلوم نفسه . . يأتيه صوت من أعماقه يعاتبه :

– لماذا تغار من الماضي . . ؟ لماذا تتألم كلما عانقتها وقبلتها . ؟ لماذا تضع بينك وبينها صورة زوجها الأول . ؟ لماذا تتخيل كيف نامت معه ثلاث سنوات . . . وكيف أنجبت منه هذه الطفلة التي تراها وكأنها تبتسم لك بسخرية فتثور وتحس بالدم يصعد إلى رأسك .

بهدوء يتمدد قربها . . يعانق أحلامه . . وبراحة تامة ينام .

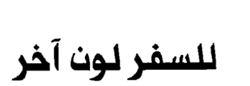
في الصباح يلتفت إليها . . يفتح عينيه . . يجدها بعينيها اللامعتين وشعرها المنسدل على الوسادة . . تبتسم له في وداعة رائعة . يضمها بين ذراعيه وصدره . . يلمها إليه . . يتفحص أنفاسها الهادئة . . يمسح على شعرها . . يقبل رقبتها . . يرفع نظره إلى صورة الطفلة المعلقة . . يراها تبتسم في براءة الأطفال . . وبوداعة آسرة كابتسامة أمها .

يبتسم لها هامساً :

- كم أحبك يا وفاء . . وأحب أمك الرائعة .

يشرق وجهها . . وتتوهج كل الأشياء بداخلها . . أمام بحر عينيه العميق القرار . . وعالمه الواسع المدى .




للسفر لون آخر

حين صعدت الجسر الذي يربط العديلية بالروضة* تنفست بعمق وارتياح . . لقد تم كل شيء بهدوء . . هكذا أسرت لنفسها . . وهي تتحسس نقودها التي حولتها للتو في المباركية عند- المزيني للصرافة** . . والتي كانت ضمن سلسلة من مهام هذا اليوم المليء بالمفاجآت الراكضة المرهقة المتعبة . . التي عدتها كالأحلام في الساعات الأخيرة قبل أن تنام البارحة .

كانت ليلة صيف صافية رائعة . . لكنها بقيت في فراشها متمددة على وسادة الأحلام . . مفتوحة العينين .

فرحة . . حالمة . . بسفر الغد . . وكأنها لا تسافر كل سنة وفي مثل هذا الموعد من كل عام . . لكن ما الذي يحزنها ويقلقها . . أفراق حبيبها وخطيبها المحفور بين الضلوع . . أم فراق أمها التي تمتلك روحها . . ويسكن حبها في دم العروق . من الضروري أن تنام . . تحاول أن تغفو ولو قليلاً . . لكنها تحس أنها داخل عالم رحب ملون . . تفتح جفنيها نصف فتحة . . ترى حقيبتها في الظلمة ممددة كجثة سوداء .

لا تستطيع أن تعد المرات التي فتحتها طيلة الأسبوع المنصرم . . ولاعدد المرات التي وقفت أمامها وهي ترمي بها كلما تذكرت حاجة .

---

* العديلية و الروضة :اسم مناطق كويتية .

** اسم شركة لصرافة النقود .

هذه العادة من وصايا أمها السبع :

- عليك أن تجهزي حقيبة السفر قبل أسبوع لتضعي فيها كلما تذكرت شيئاً

عليها أن تنهي ترتيب شنطتها على الأقل . . في هذه الليلة الأخيرة التي تسبق السفر . . تنهض . . تقف مترددة أمام الحقيبة المفتوحة . . تضع كتاباً . . قلماً . . ورقاً . . ثلاثة فساتين للخروج . . ثلاثة قمصان للنوم . . إيشاربات حرير ملونة . . سشواراً . . مشطاً . . مبخراً . . وطيباً . . و . . . و

تهمس بداخها :

- لن أثقل ، سأشتري كل شيء من هناك

تتوقف . . . تمنح نفسها وقتاً للراحة . . تجلس على حافة السرير . . . تزحف قليلاً للداخل طلباً للاسترخاء . . تتمدد لتهرب من التعب . . . ومن الفوضى الراكضة في الغرفة . . فهي لم تتعود إلاّ الترتيب في كل شيء . . غرفتها دائماً نظيفة ومرتبة . . لكن في هذا الوقت الضيق . . تجد ذلك صعباً جداً .

تفتح التلفاز . . . تنشغل بالتفرج على شاشته الصغيرة . . تاركة التفكير بالسفر يتسرب من باب غرفتها العائمة . . تطير في سماء المدينة الهادئة فوق أبنيتها الشاهقة الوديعة . . تمشي . . . تمشي في شوارعها وضواحيها ذات الأنوار الخافتة الطائرة في حلم قلبها . . الممتلىء بحضوره الغائب .



الساعة الواحدة والنصف صباحاً . . مازلت تواصل مشاهد التلفاز . . لم تغلقه إلاّ حين تقترب خطوات أمها من غرفتها .

تغمض عينيها على صمت الليل . . ما بالها الليلة على غير عادتها . . هل هو سر السفر الذي جعل ليلها نهاراً ؟ . ما الذي ينتظرها حين يكون نهارها ليلاً . . لا . . لا . . مستحيل . . . تغلق عينيها . . تنام . . وصوت داخلها يحدثها :

– انتهى الليل . . الصبح قادم . . وراءك يوم مبكر للعمل . . وسلسلة من المهام .

تدخل أمها . . تسمي وهي تمرر يديها عليها . . تضبط اللحاف فوق جسمها . . ثم تطفىء النور .

لحظة بزوغ الفجر تتحرك . . يداهمها إحساس ورغبة شديدة في النوم من جديد . . لكن الحر يوقظها . . أستيقاظها المبكر يذكرها بنصيحة أمها :

– الصحو المبكر نعمة من الله . . استيقظي صباحاً . . لتري الدنيا تتفتح مثل وردة الجوري . . تشمينها وتقطفين منها لحظة الانتعاش الأولى . . فيصبح يومك سعيداً ميسراً .

أمها تدرك حقاً . . إن ابنتها . . كم هي . . جادة أكثر من اللازم . . تنام مبكرة . . ولا تحب السهر . . بل لم تتعود عليه .

تستيقظ . . ترى البيت هذا الصباح مطفأ الأنوار . . هادئاً . . صامتاً . . . مختلفاً عن ليلة البارحة .

تُطل من النافذة باحثة عن كهرباء المساء . . التيار الكهربائي مقطوع عن المنطقة وبالتأكيد يزيد الجو حرارة ورطوبة .

الكل عندها يغط في نوم عميق .

تتذكر نصائح الطبيب بأكل تفاحة . . لكنها لم تذهب للثلاجة تقطع الوقت مع جرائد الصباح . . تفتحها . . تتقلب بين سطورها . . أخبار رسمية مملة . . ترمي بها جانباً وبصوت منخفض تتمتم :

- يا لهذا الصباح المختلف عن صباحات الود السابقة .

تغادر البيت ساعة الإفطار . . النوافذ مازالت مطفأة ، بعضها قد فتح بنصف فتحة لاستنشاق هواء الشارع . . والأرض تفوح منها رائحة الحرارة والرطوبة .

في الصيف لانقطاع التيار سطوة غريبة على الناس . . تجعلهم تائهين يمشون كخيال المآتة . . ولاحول لهم ولا قوة .

لكنها لن تكون كذلك . . عليها في الصباح . . صباح السفر الجميل . . أن تكون فرحة مبتهجة .

تمشي . . تمضي بسيارتها باتجاه العمل . . . ترى الشوارع وكأنها شوارع أخرى . . أكثر أناقة ونظافة . . الصباح في هذا الوقت الذي لم تتعود الخروج به تجده شفيفاً بالغ النقاء . . يتدحرج على ذاكرة المدينة الساطعة المترعة بالجمال والنعم الكريمة . . والمسرفة في الخير والدعاء .

الفرح يغسل وجهها برضابه مع كل خطوة . . لم تفكر بالتعب . . ولا تخشى منتهاه . . تتحمل برحابة . . قسوة الرطوبة . . وارتفاع الحرارة . . . أحلام الفرح فقط تتزاحم برأسها . . لاتريد لها لحظة انتهاء .

تصل للعمل . . تطلب لها نسكافي . . بدل قهوة الصباح . الموظفات يأتين . . دفعات . . دفعات . . تبادرهن بتحية ورد الصباح إحداهن ترد عليها بلطف وهي تسأل :

- غداً بالسلامة السفر .

تهز رأسها مؤكدة .

- أجل . . أحس بتعب . . ومحتاجة لشيء من الهدوء والراحة . زميلة

أخرى جالسة على اليمين :

- هل ستجهزين للفرح أثناء سفرك .

تجيب مبتسمة : لا . . سفري مع الأهل إجازة للراحة فقط تلتفت إليها التي بقربها وهي تقول :

- يا بختك ينتظرك سفر بهيج . . أجواء مريحة . . جو بارد . . تسوق . . نزهات . . ونحن هنا مرابطون . . خمول في خمول . . جفاف بجفاف . . . إيه يا حسرة . . اعتدنا على ذلك كل عام .

زميلة رابعة تنظر نحوها وتعلق : للسفر في هذا الشهر اللاهب عشر فوائد وليس خمسة أولاها الهروب من الحر . . والرطوبة .

تبتسم لهن . . تسألهن بلطف :

- هل تحتجن إلى شيء . . هل هناك أية توصية . . أو شيء معين ترغبن أن توصين عليه . يأتيها صوتهن :

- لا شكراً . . لانريد شيئاً . . تعودين بالسلامة .

تجلس فترة . . تنظر إلى ساعتها . . تستأذن . . ترفع يدها ملوحة . . مودعة . .

❖ ❖ ❖

تذهب إلى محل الصرافة . . تصرف عملات أجنبية . . تميل على الصيدلية . . تمر على الخطوط الكويتية . . حقيبة يدها الصغيرة منتفخة . . . فلوس . . . تذاكـــر . . . جـــوازات . . . بيـــجـــر . . . هاتف نقال . . . .و . . . .

وبعد إنجاز أي شيء . . وكل شيء . . تمد يدها إلى حقيبتها لتتأكد من وجود أثمن ما تملك . . وجود عهد اليقين لحب الفرح الآتي .

اليوم ما باله طويل . . التعب فيه متواصل . . ومع هذا لحد الآن ــ .

الساعة لم تبلغ الثانية عشرة ظهراً . . لكنها أوشكت .

ها هي تصل السرة* . . تمر على جسر المغرب الدائري الرابع . . تتذكر الشاعرة الجميلة سعاد** . . شاعرة الحب والوطن . . حين كانت تنشد في أمسية مهرجان القرين*** :

كويت . . . كويت

أشيلك حيث ذهبت . . حجاباً بصدري

أشيلك برعم ورد باعماق شعري

أشيلك في القلب وشماً عميقاً

لآخر . . آخر أيام عمري

تبتسم . . تسرح . . بزهو تتمتم :

– الحمد لله رتبت كل شيء . . معتمدة على جهدي . . أديت على أكمل وجه . . كل التزامات السفر . . وفرغ الأمر مني .

تصل إلى جسر حولي**** . . تنعطف يميناً إلى الجابرية* . . منطقة سكنها . . فرحة وسعيدة بما أنجزت . . نسمات الرطوبة تلامس نوافذ سيارتها الباردة من الداخل . . والحارة جداً من الخارج .

روحها المنتعشة تحلق في فضاء الأمنيات . . . تهرب من إيذاء خيالها إلى مذياع السيارة . . لم تدر المؤشر على نشرة الأخبار التي ستذاع قريباً . . وقد تتوقع أن تصيبها باليأس والإحباط . . . ولا على أغنية فريد التي انطلقت . . .

– سافر مع السلامة– بل فضلت عليهما الموسيقى . . كي تزداد مساحة

---

* السرة : اسم منطقة كويتية .

** سعاد الصباح : شاعرة كويتية معروفة على المستوى العربي والعالمي .

*** مهرجان ثقافي سنوي ينظمه المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب .

**** حولي – الجابرية : اسم مناطق كويتية .

فرحها .

اقتربت من الوصول للبيت . . لكن الشارع مكتظ بالسيارات . . الازدحام فقط . . سيارات . . سيارات . . عليها أن تسير بهدوء

في تلك اللحظة . . شردت برهة . . فجأة وعلى نحو مذهل . . وبكل ما في الثانية الزمنية من سرعة . . تضربها سيارة خارجة من الشارع الجانبي جهة اليمين . . مقابل بنك الدم- . . . بالجابرية .

كان الارتطام شديداً ومروعاً . . أحدث دوياً رهيباً . . اهتزت له جنبات المكان قرب- الفحص الفني- . . . الذي يشهد كل يوم أحداث الشارع العام الذي تنطلق فيه السيارات غادية ورائحة .

الضربة مؤلمة وقاتلة . . ترنحت السيارة بعدها يمنة ويسرة . . تقلبت على جنبيها وهي بداخلها . . ارتجت كل عظامها حتى تراقصت في لحظة دامعة .

لم تكن الكسور التي أصابتها تعنيها . . إنما الذين هبوا لنجدتها هالهم منظرها . . سيارتها تتهشم . . على وجه الرصيف . . حقيبة يدها الصغيرة تتمايل مثل طائرة ورقية . . ترتفع . . وترتطم بالإسفلت . . تتناثر المحتويات . . تتناثر عهود الحب والنقود على زجاج السيارة . . . ورصيف الشارع . الازدحام يشتد حولها . . في قلب الظهيرة الصفراء . . الباكية كالعدم . . أصوات عالية . . ولصرختها رماد . وحيدة في زحام الغرباء . . لا تعرف أحداً منهم . . دشاديش بيضاء . . عباءات سوداء . . نظارات طبية . . فساتين الوان والوان . . ومكياج . . الدنيا تدور . . المباني تدور . . وهي بين ذلك جسد يخور . . ويدان تقبضان على الهواء بأصابع متيبسة . . ووجه فيه كدمات وقروح . . دم يسيل على الأرض . . فوق شظايا الزجاج . . وتنفس يعلو ويهبط في نهج عاصف . . الحريق يصعد إلى

جوفها . . يجف سقف حلقها . . وتشعر بالظمأ القاتل . .

عند الخطر تتألق الأرواح وتصبح أكثر شفافية . . تريد الطيران . . تغمض عينيها . . فيتراءى لها . . بعض الذين ماتوا بحادث سيارة . . صقر . . أحمد . . ماجد . . خالد . . ناصر . . حمود . . و . . و . .

❖ ❖ ❖

تطير في أجواء الدهشة . . تتنابها أحلام جميلة خارج الدائرة الأرضية . . ترنو إليها بلا مبالاة . . تغمغم :

– لماذا الحياة تبخل علينا بالفرح . . لماذا تريد الإنسان أن لا يكون سعيداً جداً ؟ هل لأن الأرض مملوءة بالأرواح الشريرة التي تستكثر على البشر سعادتهم ؟ لماذا معظم الأغاني والأشعار والأقوال حزينة ؟ هل لأننا نخاف الفرح ؟ مع أن القليل من الفرح يحيي الإنسان تتذكر كلام أحدهم :

– العرب هم أكثر الشعوب خوفاً من الفرح . . مع أنهم عشاق للطرب والضحك . . لكن إذا ما فرحوا . . لا يستمر الفرح معهم طويلاً . . بل الحزن يستمر . . وله أشكال وألوان . . ومعظم البلدان العربية . . تتغلف بألوان الحزن والأزمات المختلفة .

لا تزال مستلقية بجراحها في هذه الظهيرة الحارقة على الرصيف الساخن . . وكأنها حجرة رخيصة ملقاة على قارعة الطريق . . الناس تعبرها . . وتركض فوقها .

تسرح . . تطير عالياً . . تنطلق . . تتقمص أجنحة النوارس . . تهبط لقاع البحر . . تسبح . . تسبح كالسمكة . . تبحث . . . تفتش . . تسأل في محنتها . . القواقع . . المحار . . حوريات البحر . . إن كن يعرفن اسمه الذي يعلو ويهبط في سمعها .

صفارة الإسعاف تعكر أحلامها النقية . . ومزاجها الصافي . . في لحظة

صدق الحقيقة .

الصفارة تعول دونما توقف . . عويلها الممل . . يشق الاذآن وينهش القلب والدماغ . . وينفذ إلى النخاع كالدود . . فتحس أن كيانها يتخشب . . يصبح شفافاً . . يريد الطيران من جديد .

طوت . . طوت . . طوت . . يطغى صوتها على كل الأصوات . . المذياع . . ضجيج الناس . . السيارات . . في سرها تهمس :

- أرجوك أيتها الصفارة . . اصمتي ولو دقيقة واحدة . . فأنا إنسانة مرهقة جداً .

شباب الإسعاف الشهم . . يسرعون . . يضعونها على النقالة . . هي غائبة عن الوعي . . لم تدر ما يحدث .

أول شيء عرفته بعد أن استعادت وعيها . . أنها في مستشفى مبارك الكبير* . . وقد غطي جسمها بشرشف أبيض . . وحولها الأطباء وعدد من الممرضات . . وجوه من الأهل . . والناس . . والأصدقاء . . جاءوا وكأنهم يشهدون لحظات عمرها الأخيرة . . وموكب رحيلها من الدنيا .

بهدوء مستلقية على الفراش . . ترفع جفنيها للتعرف على من حولها . . وكأنها بحلم . . أطياف الوجوه متداخلة أمامها . . أول الوجوه وجه أمها السمح وهي تغالب دموعها . . لكن دمعة كبيرة تسقط عليها من تحت سواد عينها الحنونة . . تضمها إلى ضلوعها بلهفة وتقول :

- الحمد لله على كل حال . . الحذر ما يمنع القدر . . ووشم المقدور لا يستطيع الناس أن يمحوه . . الحمد لله . . الحمد لله .

تحس بثقل رجليها . . تسأل الطبيب :

---

* اسم مستشفى يقع في منطقة الجابرية .

- أرجوك يا دكتور . . رجلاي . . لا أحس بهما .

يلتفت إليها الطبيب وهو يطمئنها .

- احمدي الله . . أنت بخير . . رجلاك بالجبس . . أنت بحاجة لوقت . . فقط اصبري . . وتجملي بالصبر .

❖ ❖ ❖

من البعيد القريب يأتي إليها . . تبتسم بذهول . . يتوارى شحوبها بالبهاء . . حين تراه يعزف على الباب نغمات الدخول .

تبرق عيناها . . تهمس

- من أي الأبواب جئت ؟ . . كيف عرفت ؟

يقترب منها معاتباً :

- لقد أردت أن يكون الحب بيننا في الهواء المسافر . . تركضين وراء السفر دوني . . تاركة التزام الفرح الآتي . . السفر لو تعلمين درب من الفراق . . وأجمل الأسفار . . السفر إلى الداخل . . لا سيما في وقتنا هذا الضيق .

تردد وهي تلتقط أنفاسها :

- تقصد سفرنا . . الكارثة . . التي حلت بنا . . قبل الوصول .

ثم تضيف هامسة :

- لم أكن أعلم أن للسفر لوناً آخر حزيناً .

يقترب منها أكثر . . يربت على كتفها . . يضع يديه فوق يديها . . يهمس . .

- الحمد لله على السلامة . . كل شيء سيكون على أحسن ما يرام .

في تلك اللحظة توهمت . . أنها قوية . . وأن بمقدورها أن تستعيد حياتها العادية . . لكنها لا تقوى على الحركة . . رجلاها ثقيلتان . . تتنهد

وهي تهمس :

– إني أحس أن الربيع لم يعد يزهر كما كان . . في عمر حياتي .

يؤكد لها :

– بل قولي هذه بداية ربيع الحياة . . وستكون أفضل مما كان . . طالما نحن والحب والأبد المنتظر معاً .

يزهو وجهها . . تتورد بها أزهار ندية تبتسم وهي ترد :

– مجيؤك يختصر المسافات . . حين جئت حضرت كل الإجابات . يهز أصابع يده مؤشراً :

– حتى المستحيل الممكن .

يمتلىء صدرها بالحياة وهي تقول :

– أشرع لك قلبي بكل الممكنات . . وأفوض لك قرار النهاية بيدك أنت وحدك .

يسرع القول :

– يبقى سؤال! . . غير استعجال النهاية

تضع يدها على فمه حين ترى شغفه الزائد باستعجال النهاية . . تبادره بلهفة :

– أرجوك . . لا تسل . . أنت بحاري . . ولؤلؤي . . ومحاري . . وجهك فقط هو بيتي وداري .



ليلى محمد صالح

* تكتب المقالة والقصة القصيرة .
* ساهمت في كتابة العديد من البرامج الثقافية والادبية أشهرها (أمسية الاربعاء) وهي سهرة ثقافية أسبوعية .
* في عام ١٩٧٨ م صدر لها كتاب بعنوان (أدب المرأة في الكويت) .
* في عام ١٩٨٣ م صدر لها كتاب (أدب المرأة في الجزيرة والخليج العربي) الجزء الأول .
* في عام ١٩٨٦ م صدر لها كتاب (أدب المرأة في الجزيرة والخليج العربي) الجزء الثاني .
* في عام ١٩٨٦ صدرت لها مجموعة قصصية (جراح في العيون) .
* في عام ١٩٩٤ م صدرت لها مجموعة قصصية (لقاء في موسم الورد) .
* في عام ١٩٩٦ م صدر لها كتاب (أدب وأدبيات الكويت) أعضاء الرابطة ١٩٦٤ - ١٩٩٦م سلسلة كتاب رابطة الادباء .

الفهرس

لوحة الغلاف للفنانة الأديبة عالية شعيب

عطر الليل الباقي

- تكتب المقالة والقصة القصيرة.
- ساهمت في كتابة العديد من البرامج الثقافية والادبية أشهرها (أمسية الاربعاء) وهي سهرة ثقافية أسبوعية.
- في عام ١٩٧٨ م صدر لها كتاب بعنوان (أدب المرأة في الكويت).
- في عام ١٩٨٣ م صدر لها كتاب (أدب المرأة في الجزيرة والخليج العربي) الجزء الأول.
- في عام ١٩٨٦ م صدر لها كتاب (أدب المرأة في الجزيرة والخليج العربي) الجزء الثاني.
- في عام ١٩٨٦ صدرت لها مجموعة قصصية (جراح في العيون).
- في عام ١٩٩٤ م صدرت لها مجموعة قصصية (لقاء في موسم الورد).
- في عام ١٩٩٦ م صدر لها كتاب (أدب وأدبيات الكويت) أعضاء الرابطة ١٩٦٤ - ١٩٩٦م سلسلة كتاب رابطة الادباء.



ISBN => 2-84305-244-0
EAN => 9782843052446